يصدرها حلمي مراد

مطبوعات كتابي



أروع ما كتب

مارسيل پريفو

مدموازيل جوفر

مرسيل بريڤو

مدموازيل جوفر



MADEMOISELLE JAUFRE

Par

MARCEL PREVOST

الثمن ١٠ قروش

مجموعة كتابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها حتى الان سبعة وثمانون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد فى أول كل شهر .

مطبوعات كتابى

(الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية)

صدر منها واحد وخمسون كتابا (ومجلدان خارج السلسلة يحتويان على الترجمة الكاملة لقصة « دكتور جيفاجو ») ، وتطلب قائمة بأسماء الكتب جميعا من الادارة .

الاشتراكات

◆ تطلب الاعداد السابقة من كل من المجموعتين من :

ادارة « كتابى » : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة

• الاشتراكات عن ١٢ عددا من كتابى فى ج.ع.م والسودان والمملكة السعودية والاردن ولبنان وليبيا والعراق ١٤٠ قرشا سنويا خالصة أجر البريد المسجل ، وما عداها من البلاد العربية الأخرى والبلاد الأجنبية فالاشتراك السنوى ١٨٠ قرشا سنويا خالصة أجر البريد المسجل .

ولمن شاء ان ترسل له الاعداد بالبريد الجوى المسجل ، ان يدفع فرق الرسوم .

◆ ترسل قيمة الأعداد والاشتراكات فى مصر باذن بريد عادى . وللمشتركين فى البلاد الاخرى ان يرسلوا القيمة بشيك على أحد بنوك القاهرة ، او تحويلات مصرفية ، او كوبونات بريد دولية فئة ٤٠ مليما ، على أن يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر . علما بان سعرها فى مصر ٣٧ مليما . ومن الممكن لمن فى السودان ان يرسل القيمة بحوالة بريدية .

مطبوعات

كتابى

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

الكتاب الثانى والخمسون

مدموازيل جوفر

ترجمة فقيد الصحافة العربية المرحوم

فرج جبران

الادارة : عمارة الجندول ـ ١٤ شارع ٢٦ يوليو ـ بالقاهرة

تليفون ٥٩٥٥٦



المؤلف .. فى سطور

ولد « مرسيل بريفو » فى باريس عام ١٨٦٢ . ثم تخرج من كلية الهندسة واشتغل مهندسا فى مصانع التبغ حتى استقال منها عام ١٨٩٠ . وكان وقتئذ قد نشر ثلاثا من رواياته: « العقرب » (عام ١٨٨٧) ، و « كونشيت » (عام ١٨٨٨) ، و «مدموازيل جوفر» — التى تقرأها فى هذا العدد — فى عام ١٨٨٩ .. ثم تلتها هذه الروايات على التوالى : «ابنة العم لورا»، اعترافات عاشق (عام١٨٩١) ، رسائل النساء (١٨٩٢) ، خريف امرأة (١٨٩٣) ، أنصاف العذارى — وقد اقتبست منها مسرحية مثلت على مسرح (جيمناز) فى العام التالى — رسائل النساء الجديدة (١٨٩٤) ، ريفنا (١٨٩٥) ، الحديقة السرية ، رسائل النساء الاخيرة (١٨٩٧) ، البيت السعيد (١٩٠٠) ، فريدريك ، ليا (١٩٠٠) ، رسائل الى فرانسواز (١٩٠٢) .. والاخير يتناول موضوع تربية البنات ..

ويعتبر « بريفو » من أقدر الادباء على تحليل نفسية النساء ، وهو يتفوق فى التحليل العاطفى الذى يتميز فى آن واحد بالرقة والجلال !

و « مدموازيل جوفر » من أروع روايات « بريفو » ، وتعتبر من أقوى قصص الأدب الفرنسى التى تنطوى على دراسة عميقة .. كما سترى .

وقد توفى مرسيل بريفو عام ١٩٤١ .

الصديق الذى رحل ..

يا للمصادفة المشئومة !

وهل أعجب ، وأفجع ، من المصادفة التى شاءت أن يصدر العدد الماضى من كتابى فى يوم أول أكتوبر الحالى ، وفى الصفحة الاخيرة منه اعلان عن هذه القصة التى بين يديك .. وفى نفس الساعة التى كان الباعة يحملون فيها ذلك العدد من كتابى ، كانوا يحملون صحف الصباح وفى صفحتها الاولى نبأ اختفاء طائرة الركاب العربية فوق جزيرة البا ، وبين ركابها الكاتب الصحفى والصديق الحميم **فرج جبران** .. مترجم هذه القصة !

وقرأت النبأ ، وبكيت ..

لم أصدق أن تنتهى هكذا فجأة ، وعلى هذه الصورة المفجعة ، حياة الصديق العزيز الذى قابلته لأول مرة عام ١٩٣٨ ، يوم دخلت مكتبه فى مجلة (الشعلة) أحمل أول قصة مصرية كتبتها .. وكان هو يكتب للشعلة مقالا عن أول رحلة له « بالطائرة » من القاهرة الى الاسكندرية !

.. وعدت الى ذلك المقال ، فاذا هو يبدأ بهذه السطور ، (وكأنها نبوءة أو نذير بما وقع لكاتبها بعد اثنين وعشرين عاما من كتابتها !) :

« حين أعلنت على رؤوس الأشهاد اننى سأسافر بالطائرة اختلف هؤلاء الأشهاد فى طريقة استقبال الخبر ، فمنهم من هز رأسه آسفا مترحما على شبابى الغض ، وذكرنى ببيت الشعر المشهور :

الموت نقـــاد على كفـه.

جواهر يختار منها الجياد

« ولكننى أقنعت هـذا البعض بأن الموت قد يكون نقادا بالفعل .. واننى قد أكون من الجواهر حقـا .. ولـكننى لست من الجياد ، من جياد الجواهر ، فلا محل للخوف اذن !

« ولم أشـعر بخوف وأنا أركب الطائرة للمرة الاولى فى حياتى ، ذلك لاننى كنت أعتمد على وجود مظلة الوقاية أو (الباراشوت) تحت مقعد كل راكب .. والباراشوت كفيلة بأن تصل بأى طائرة ، أقصد مسـافر بالطائرة ، الى الارض سالما ، حتى لو كان فى حجم زيور باشا !

« ولكن ما لم أذكره الا وأنا فى الطيارة هو ان الباراشوت قد لا ينفتح أحيانا بمن يلقى بنفسه من الجو .. ولما تذكرت هذه الحقيقة كدت أغادر الطيارة لولا ان الباب كان قد أغلق، والطيارة أخذت تتحرك على الارض استعدادا للطيران ! »

***

وقد ركب فرج جبران الطائرة منذ تلك المرة الاولى مئات المرات ، ففيما عدا سنوات الحرب العالمية ، لم ينقض عام لم يغادر القطر فيه الى الخارج فى رحلات صحفية مرة أو مرتين ، فزار اوربا عشرات المرات ، كما طاف بانحاء امريكا الشمالية وامريكا اللاتينيـة أكثر من مرة .. وفى كل رحلـة من تلك

الرحلات كان يركب الطائرة عشرات المرات، متنقلا بين مختلف الدول والمدن .. فلماذا شاء القدر الساخر أن يختم حياته المثمرة داخل الطائرة التى أحبها كل هذا الحب ، واختارها وسيلة لتنقلاته قبل أن يعم الانتقال بالطائرة ويقبل عليه الناس هذا الاقبال الذى نشهده هذه الايام ؟ !

اللهم سبحانك ، تعالت حكمتك وجلت عن الفهم !

***

وقد شغف الفقيد بأدب « مرسيل بريفو » منذ بدأ يكتب للصحف .. فترجم له فى (الشعلة) ـ أيام كان يشرف على تحريرها ـ عشرات القصص القصيرة ، كما ترجم له منذ أعوام طويلة كتابه المشهور « رسائل النساء » .. أما من روايات « بريفو » الطويلة فهذه أول قصة يترجمها له .. وكم يحز فى النفس أن يختطفه الردى قبل أيام معدودة من نشرها ، وهو الذى سهر عليها الليالى الطوال ، وأعرب لى أكثر من مرة عن مدى لهفته على صدورها !

وكم يحز فى النفس أن أذكر لقاءنا الاخير ، فى نادى مصر الجديدة ، قبل سفره فى رحلته الاخيرة بأسابيع . كنت قد دعوت الصديق « نبيل حمدى » ـ السكرتير بسفارتنا فى طوكيو ـ الى جلسة فى النادى فى ذلك المساء من أمسيات الصيف . وفيما نحن نختار منضدة نجلس اليها فى شرفة النادى، لمحت الراحل العزيز جالسا بمفرده الى منضدة قريبة، فدعوته للانضمام الينا .. ودار الحديث حول بلاد اليابان ، فقال انه يتمنى ان تتاح له فرصة زيارتها ، وانه سيحاول تحقيق هذه الامنية فى ذلك الصيف بالذات . ووعد الصديق

نبيل حمدى بأن يخطره بموعد وصوله الى طوكيو اذا استطاع تدبير برنامج تلك الرحلة ..

ثم افترقنا فى تلك الليلة .. ولم تمكنا المشاغل من اللقاء فى الاسابيع التالية .. حتى قرأت له تحقيقا صحفيا فى « الجمهورية » كتبه من (بيروت) ، وعلمت انه سأل عنى قبيل سفره فقيل له اننى فى الاسكندرية . ثم مر شهر سبتمبر وانا أسأل نفسى كلما امسكت بالجمهورية فلم اجد تحقيقا من تحقيقاته الصحفية : ترى اين ذهب بعد بيروت ؟ .. هل اتيح له أن يحقق حلمه بزيارة اليابان ؟ .. أم سافر الى بلد آخر ؟ .. وفى هذه الاثناء كنت قد فرغت من اصدار الجزء الثالث من (مرتفعات ويذرنج) ، فخطر لى ان أفاجئه لدى عودته بنشر قصته هذه ، التى كان قد تأخر نشرها من قبل ، بسبب فقدان بضع صفحات من أصولها ، لدى عامل النسخ الذى نسخها على الآلة الكاتبة .

وبينما القصة يجرى اعدادها للطبع ، حان موعد صدور كتابى السابق ، فضمنت صفحته الاخيرة اعلانا عن قرب صدور هذه القصة ..

.. وهو الاعلان الذى طالعه قراء كتابى فى **نفس اليوم والساعة** التى خرجت فيها صحف صباح السبت أول اكتوبر تحمل الى قرائها النبأ المفجع ، عن اختفاء الطائرة التى كان عائدا عليها الى القاهرة !

فسلام عليك أيها الصديق العزيز .. وحسرة مبللة بالدموع ، أبكيك بها من قلب لا يجد عن فراقك عزاء ..

فكيف بالله أطلب لأسرتك العزاء ؟ !

اللهم رحمتك ! **حلمى مراد**

القسم الاول

(١)

« **اننى** أشرب نخب صحتك وصحة أسرتك يا لويس !.. وأنت أيضا يا كاميل.. هاتى كأسك واشربى نخب «زوجك» العزيز ،وادعى له برحلة مباركة ! »

ووقف الصغيران ، « لويس » و « كاميل » ، اطاعة لامر الطبيب ، فداعبت شعرهما الفروع المتدلية من شجرة التين .. وأخذت الكأس تهتز فى يد « لويس » ، فما لبث أن رفعها الى فمه وأفرغها .. كذلك شربت الفتاة كأسها ، ثم قفزت لتمسك بيدها ثمرة من ثمار التين ، التى كانت تتدلى من الفروع السفلى !

واذ جلس الثلاثة الى المائدة ـ بعد ذلك ـ سيطر عليهم الصمت . ولا عجب ، فان الوقت كان قد قارب الغروب،وساد الهدوء تلك المنطقة التى اشتهرت بجمال طبيعى قل أن يجد الانسان له مثيلا الا فى ايطاليا .. أجل ، كانت مدينة (تونيان) تدين لمناظرها الطبيعية البديعة بصيتها الذائع .

وراح لويس ـ فى صمته العميق ـ ينقل بصره بين المائدة وبين الحديقة الغناء التى كانت تحيط به . أما « كاميل » ، فقد مضت تأكل ثمرة التين ـ التى اقتطفتها من الشجرة ـ وهى تبتسم لوالدها الطبيب الذى جلس أمامها .. وما لبثت أن دوت فى ارجاء ذلك المنزل ، ذى الطابق الواحد ، ضحكة عالية ترددت فى الحديقة .. ضحكة غريبة لا يكاد المرء يميز ما اذا كانت صادرة عن انسان أو عن حيوان . فارتجف

لويس .. وكانت الفتاة تراقبه بعينين حادتين ، فما لبثت أن قالت :

ـ هل لاحظت يا والـدى كيف ارتجف لويس ، وهو فى مقعده ، عندما سمع ضحكة « ارما » ؟

وانفرجت شفتا الطبيب عن ابتسامة عريضة ، وقال وهو يعبث بشعر الصبى : « مسكين ياعزيزى لويس ! .. أتغادر (تونيان) ولما تألف بعد ضحكة خادمتنا ؟ ! »

ثم رمقه بنظرة عطف وحب ، فقال الصبى : « أجل ! .. كان يجدر بى أن ابقى هنا ، برغم أن هذه الضحكة تؤثر على اعصابى ! »

وفى تلك اللحظة ، برزت من المنزل امرأة لم يكن من السهل ادراك سنها ، وقد حملت أقداح القهوة .. وكانت مخيفة الشـكل حقا ، غريبـة الملابس ، غائرة العينين ، حتى أن « لويس » لم يتمالك أن أشاح بوجهه كى لا يراها .. وتبعها « الدكتور جوفر » بنظره حتى خرجت ، ثم قال : « ان لويس محق فى خوفه من هذه المرأة ، وكان من الواجب اقصـاء المخلوقات الشاذة ـ مثل خادمتنا ـ عن المجتمع لانها تؤذى نظره ! .. كان خليقا بأهلها أن يقتلوها يوم ولدت ، بدلا من أن يتركوها تهيم على وجهها فى الغابة ، كما وجدتها مصادفة وهى بعد صغيرة ! »

وصاحت كاميل : « آه ! ما أفظع ما تقول يا والدى ! .. أتريد أن يقتلوا « ارما » المسكينة العجوز ، التى ننتفع بها وتقوم بخدمتنا ؟ .. اننى أكاد اوقن بأن امها تراها جميلة !»

وسبحت « كاميل » فى بحر عميق من التفكير ، بعد أن نطقت بالجملة الاخيرة .. حتى اذا عادت « ارما » الى المائدة تحمل زجاجتين من الشراب ، طوقت الفتاة الصغيرة عنقهـا وقبلتها . فانتهرها والدها قائلا : « ما هذا يا كاميل ؟ .. انك فتاة غريبة الاطوار ! كيف تقبلين هذا الوحش ؟ ! »

وسكتت « كاميل » برهة ، ثم غيرت مجرى الحديث فجأة، فقالت وهى تمعن النظر فى قدح قهوتها : « بالسوء الحظ !.. كان من الواجب أن اذيب السكر ببطء فى قهوتى ، فقد جنحت الفقاقيع كلها الى الجوانب ، بدلا من أن تتجمع فى وسط القدح .. وأنت يا لويس ، أرنى قدحك ! » .. وتركت مقعدها وسارت الى مقعد الصبى فاستندت اليه ، وأخذت تتمعن القدح من وراء كتفيه .. وسر الطبيب لهذا المنظر ، بينما قال لويس مبتسما : « أحسبنى سأصبح أغنى منك ! » .. فتمتمت الصبية :

ـ هذا حق !.. أن لويس سعيد الحظ .. انظر ياوالدى ! ان فقاقيع قهوته تتجمع كلها فى وسط القدح .. يا لغرابة شكلها ! انها تسارع الى الوسط ، كأن هناك ما يجذبها اليه .. سيكون لويس رجلا غنيا .. بل غنيا جدا !!

وضربت يدا بيد ، ثم بدا عليها الحزن ، وقالت :

ـ أما أنا فسأكون فقيرة .. لكم يضايقنى هذا !

فابتسم الطبيب وقال : « وكيف تصبحين فقيرة ، اذا كان لويس سيتزوجك ؟ » .. فاحمر وجه الصبى لسماع هذه العبارة . وكانت كاميل قد جلست بالقرب منه ، فانحنت عليه ـ عندما سمعت قول والدها ـ حتى اقترب رأسها من رأسه ، وكأنها عاشقة تقترب من عشيقها . وقالت وهى تنظر فى عينيه :

ـ لسوف تتزوجنى بكل تأكيد .. أليس كذلك ؟

فأطرق الصبى برأسه ، وقال لها بصوت واهن ، شديد الاضطراب :

ـ بلى ! لقد عاهدتك يا كاميل !.. لن أتزوج من غيرك ، اذا انت وافقت ..

وهنا انتبه الطبيب الى وضع ابنته من الصبى ، فقطب جبينه ، وقال : « اعتدلى فى جلستك يا كاميل ! »

***

وغادر المائدة، فتبعه الصبيان.. وبينما راح الطبيب يتمشى في الحديقة ، اقتادت « كاميل » صديقها « لويس » الى ركن قصى بالقرب من سياج الحديقة ، يشرف على غابة صغيرة من أشجار برية ضخمة ، بدت كمتنزه مهجور ، اذ لم تكن قد امتدت اليها يد انسان بالعناية - منذ نصف قرن تقريبا - فاختفت الدروب التى كانت تتخللها ، وتوارى المنزل - الذى كان يتوسطها - وراء النباتات الطويلة والاشجار التى اطبقت عليه من كل جانب .

وسمع الدكتور جوفر صوت الصبيين وهما يتحادثان .. كان صوت كاميل يرتفع أحيانا ، كما كانت ضحكتها ترن من حين لآخر ، كأنها نغمات موسيقية . أما لويس فكان يجيب ببطء ، فى صوت رفيع ، ينم عن صغر سنه . وتمتم جوفر مخاطبا نفسه : « ما أجملهما ! »

وكان محقا فى قوله .. فقد كانت كاميل تتكىء بيديها وظهرها الى الحائط الصغير ، بحيث بدا جمالها الباهر فى أكمل صورة . ومع انها لم تكن تصغر لويس بأكثر من بضعة اشهر ، الا انها تجلت فى مظهر امرأة كاملة النمو ، وقد تهدل شعرها الاسود الطويل على ظهرها ، وراح لسانها يمر - بين وقت وآخر - على شفتيها ! .. وكان لويس يقف بجوارها ، ولكن الطبيب لم يكن يرى منه سوى جانبه الايسر ، وكان يبدو - الى جانب كاميل - كما لو أن فارق العمر بينهما كان كبيرا ، نظرا لحجمه الضئيل ! .. وكان واسع العينين أزرقهما .. لا ، بل ان لون عينيه كان دائم التغير بتباين ساعات اليوم ! .. ورفع رأسه ، فتجلت على وجهه ابتسامة اضاءته ، وهو يتبع نظرات « كاميل » الحائرة بعينيه .. وتمتم الدكتور جوفر :

— واأسفاه !.. ليت الامور سارت فى مجراها الطبيعى! .. ولكن ، هاهوذا لويس يوشك أن يرحل من هنا ، ولن يلبث أن ينسى ابنتى !

كان الطبيب يرى فى لويس — بالرغم من سنى حياته الاربع عشرة — صبيا عاقلا ، رزينا ، لا يميل للخيال ، وان كان قوى العاطفة .. وتذكر الطبيب تلك الفترة التى عالج فيها والد لويس — مسيو «لوت» — وكيف ان لويس كان يرفض، اذ ذاك ، أن ينام الليل ، ليمكث ساهرا الى جانب فراش والده المريض ، مع أن والدته كثيرا ما كانت تستسلم للتعب فتنام .. والحق ان « لويس » كان خير من توكل اليه العنـــاية بالمريض ، فكان « جوفر » — يطلعه على كل ما يجب عمله ، وهو مطمئن تماما الى انه لن يغفل منه شيئا .

وهكذا نشأت بين الاثنين — الطبيب والصبى — صـــداقة متينة ، بسبب جهودهما المشتركة فى شفاء المريض ، وبسبب ما أثاره الثانى فى نفس الاول من اعجاب .. حتى اذا شفى الوالد المريض — ولم يبق له من المرض سوى شلل فى ذراعه اليمنى — زادت الصلة وثوقا بين الاسرتين ، وعرض الطبيب أن يصبح أستاذا للويس ، يلقنه شيئا من الرياضيات فى أوقات فراغه . وهكذا اخذ لويس يتردد على المنزل المنعزل — الذى كان الطبيب يسكنه مع ابنته — فى أوقات متباعدة . على انه لم يكد يتعرف الى « كاميل » ، حتى أخذ يواظب على الحضور يوميا .. فكان يصل فى حوالى الساعة الثانية من بعد الظهر ، عقب الفراغ من واجباته المدرسية ، ليقضى مع صديقته بقية اليوم . وقلما كان يقبل أن يبقى لكى يشارك الطبيب طعامه ، فما ان كان يتذكر أن الخادم «ارما» هى التى طهت الطعام ، حتى تتلاشى رغبته فى الطعام ، فيعافه !

على انه قبل — فى تلك الامسية — أن يتناول عشاءه مع الطبيب وابنته . فقد كانت تلك آخر ليلة يقضيها بالقرب من

«كاميل» ، بعد أن نقل ابوه الى منصب أرفع، فى مدينة بعيدة فى الشمال .. وكانت الاسرة تعتزم ان تبرح (تونيان) فى قطار التاسعة والربع من المساء ذاته .

وكان الليل قد شرع يرخى سدوله .. وأخذت عينا الدكتور « جوفر » تتنقلان بين المنظر الطبيعى الرائع ، الذى اعتاد أن يراه كل مساء ، وبين الصبيين .. وراح يحلم بأن يقضى شيخوخته فى تلك البقعة البديعة ، بين ابنته «كاميل» وزوجها « لويس » .. أفلم يصبح زواجهما أمرا مقررا ؟

***

ورنت دقات الساعة فى الحديقة ، معلنة الثامنة ، فعكر رنينها ذلك السكون الشامل . وهب الطبيب جوفر من مكانه ، فسار الى البيت ، وأحضر عصاه وقبعته ، ثم اقترب من الصبى قائلا :

ــ هيا يالويس ! .. تعال قبلنى يا صديقى ، فلن أراك ثانية قبل رحيلك !

ــ اذن فأنت خارج ياسيدى الطبيب ؟ !

ــ نعم يا بنى ، فسأذهب لعيادة بعض المرضى ، وسأحقن بعضهم بالمورفين ، ولن أتمكن من الرجوع قبل منتصف الساعة الحادية عشرة .. وستكون أنت ــ اذ ذاك ــ فى القطار ، فى طريقك الى (بوردو) . ولكن فلتبق وقتا آخر مع كاميل يابنى ، لكى تودعها قبل سفرك !

وأشعل الطبيب سيجارة ، بينما تساءل لويس : « أترى من الصواب يادكتور أن تحقن المرضى بالمورفين ؟ .. لقد قرأت رأيا يناقض هذا . »

ــ اذن فأنت تشتغل بالطب منذ الآن يابنى ! حسنايازميلى العزيز ، اليك رأيى ما دمت تسألنى ..

وأمسك بيده ، وأردف قائلا : « صحيح ان المورفين دواء

فتاك .. وصحيح انه سيقضى على جزء من النشاط الحى للثلاثة الذين سأحقنهم به الليلة ، ولكنه ــ فى ذلك ــ سيخفف من آلامهم ، ويسلمهم الى أحلام اجمل من الحياة الحقيقية ، بدلا من ان يقضوا ليلهم فرائس للاوجاع .. وكذلك الامر بالنسبة لى ، فسأنام ــ أنا الآخر ــ مطمئنا مرتاحا ، لاننى أبعدت الالم عن ثلاثة مخلوقات .. وهذا هو الواجب الحقيقى للطب ، يازميلى العزيز ! »

ثم نزع السيجارة من فمه ، وقبل وجنتى الصبى ، وهو يقول : « وداعا ياعزيزى لويس ! .. يجب أن تظل دائما كما أنت ، فان اجمل مافى الحياة هو العلم والحب ! .. ثق من أن الرجل لا يساوى شيئا دون قوة شخصيته وارادته ، وأنت كما أعلم قوى الارادة ، ولكن لك من أعصابك وقلبك ما يسبب لك ضعفا يجب أن تتقيه دائما ! »

وكانت « كاميل » تستمع الى نصائح والدها للصبى فى سأم ، لانها كثيرا ما استمعت الى هذه النظريات دون أن تفهم أكثر من نصفها . وتمتم لويس قائلا : « لكم أريد أن اصبح رجلا مثلك ياسيدى الطبيب ! » . فهز الطبيب رأسه قائلا :

ــ بل ستغدو أحسن منى يابنى ! .. ولسوف تمر بك ساعات قاسية ، صعبة الاحتمال ، تتحلل خلالها العاطفة الدينية القوية التى تتملكك ، واذ ذاك يجب أن تذكر نصائحى .. اذكرها وقت التردد ووقت الالم ! .. اذكر الطبيب جوفر يابنى ، واذكر انه عاش حتى صرت رجلا ، وانه سيكون سعيدا بأن يقدم لك كل ما تطلب من نصيحة أو خدمة ! .. لا تنس هذا المنزل المنعزل ، ولا تنس صديقة طفولتك ، وعد لرؤيتنا فى أول فرصة وستستقبل هنا دائما كأخ لكاميل !

وبكى الصبى وهو يستمع الى هذه الكلمات ، فقبله الطبيب للمرة الاخيرة ، وابتسم له ، ثم انصرف . واذ ذاك

دخل الصبيان الى المنزل ، فأجلست « كاميل » صاحبها الى جانبهـا ، وراحت تتحدث اليه بسرعة ، وتطالبه ـ فى كل لحظة ـ بأن يعدها بالعودة :

ـ ستعود لرؤيتى ، أليس كذلك ؟ .. عدنى أن تعود الى هنا بعد .. بعد شهرين !

ـ لا ، لا ! .. كيف لى أن أعـدك بذلك .. ان مدينـة (مرفيل) بعيدة جدا ، وسيرفض والدى أن يعطينى النقود الكافية لهذه الرحلة الطويلة !

وسكتت « كاميل » مستـغرقة فى التفكير لحظة ، اذ ان مسـألة النقود لم تخطر لها ببال من قبل ، ثم سـألته : « أوالدك غنى ؟ »

ـ لا ، ولكنى سأكون غنيا بعد مدة .. غنى الى حد ما ، على أى حال ؟ !

فقالت كاميل : « بسبب تلك الفقاقيع التى ظهرت فى قدح القهوة ؟ »

ـ يالك من فتاة صغيرة !

ولكى يقطع لويس حبل السكون، أمسك باحدى يدى الفتاة ووضعها على خده ، ثم قال مستأنفا جوابه : « لا .. وانما بسبب أخ لوالدتى ، ليس له ولد .. رجل غنى ، جمع مالا وفيرا . »

وسكتا .. وكان الظلام قد ساد الغرفة . وأخذت كاميل تمر بيـدها الصغيرة على خـد لويس ، فى حين ظلت يدها الاخرى حبيسة فى يده . وتمتم الصبى بصوت مضـطرب : « كاميل ! .. اننى أحبك حبا عظيما .. ولكن مامن شك فى انك ستنسيننى تماما بعد سفرى ! » .. فصاحت وهى تنزع يدها من يده : « آه ، ما أفظع ماتقول .. لا أحب أن تقول ذلك ! »

وقامت غاضبة من جانبه ، وذهبت لتجلس بعيدا عنه ،

على الحافة الاخرى من الاريكة ، وقالت : « انني غضبى ! » .. ولكنها لم تلبث ان قامت بعد برهة ، فركعت عند قدمى لويس ، وطوقت جسمه بذراعيها .. فأحنى الصبى الصغير رأسه حتى لامست شفتاه شعرها .. وقالت له فى تدلل : « اعتذر لى ! »

فغمغم بصوت خفيض : « بربك لا تتكلمى ، وابقى كما انت ! »

وأطاعت أمره فلم تتكلم ، وان اشتد وجيب قلبها — قلب الانثى — لهذا الرجاء .. ثم فاض الحب فى هذا القلب الصغير ، بكل ما لعاطفة المرأة من قوة ! .. وكان رأسها يستند الى صدر لويس ، فسمعت دقات قلبه عالية ، ولم تتمالك ان وضعت فمها على مكان القلب ، وقبلته ..

وفجأة ، ندت عن لويس صرخة خافتة ، وأسرع يبتعد عن الفتاة .. فقد دوت ضحكة «ارما» — الخادمة — بالقرب من الغرفة ، وكانت تنقل الخضر من الحديقة الى المنزل .. وفى تلك اللحظة ، انساب ضوء الطريق الى الحجرة ، اذ كانت المصابيح قد أضيئت فى الخارج ، فتأمل لويس ساعته — وهو يقترب من النافذة — وقال : « لقد بلغت الساعة التاسعة .. يجب أن أذهب لالحق بوالدى ! » .. فهتفت كاميل : «أبهذه السرعة ؟ .. دعنى أرافقك الى المحطة ! »

— لا ، ليس من المناسب أن تخرجى معى .. ان والدك سيغضب لذلك ، وكذلك والدتى .. ثم ، أفلن نفترق هناك على أية حال ؟

وذهب الصبى ليأخذ قبعته وعصاه الصغيرة ، فتبعته كاميل .. وفتح الباب ، وكان الشارع خاليا من المارة ، والضوء ضعيفا . وأخيرا قال لويس وهو يمد يده الى صديقته : « وداعا ! » .. فتطلعت كاميل الى عينيه ، وقالت

له : « ألا تقبلنى ؟ » .. وأجابها ، فى شىء من الارتبــاك : « لا بأس ! »

ولم تتقدم اليه لتساعده على تقبيلها ، فقد سرها ارتباكه. ولما كان أقصر منها ، فقــد اضطر الى أن يقف على أطراف أصابع قدميه ، ليصل الى خدها . وألصق فمه ببشرة الخد وهو مضطرب ، ولكن « كاميل » أمسكت به من ذراعيــه ، وقالت له : « ايها الغبى ! ليس التقبيل هكذا ! » .. ثم ضمته اليها بقوة ، وطبعت على فمه قبلة ، دفعته بعدها الى الخارج فى قسوة ، وأقفلت الباب فى الحال !

وأسرعت بعد ذلك الى النــافذة ، فأزاحت ســتائرها ، واخذت تنظر خلالها .. ورأت لويس يستند الى الجدار ، وقد نكس رأسه ، وراح يبكى .. وابتسمت كاميل لذلك ، ولكن الحزن مالبث أن ظهر فى عينيها ، وهى تتــابع الصبى بنظراتها ، اذ انطلق ـ بعد لحظات ـ دون أن يدير نظره الى الخلف مرة واحدة ، ثم ما لبث أن اختفى عن نظرها ..

(٢)

كان الطبيب « جان جاك جوفر » ابنا لبدال يدعى « جوفر »، وامرأة تدعى « مادلين باتو » . وقد ولد فى ذلك المنزل المنعزل، الذى كان سكنا لجديه لامه ، اذ آثرته امه على منزل زوجها، الذى كان يطل على الكنيسة ، فكان قرع الاجراس يزعجها فى أواخر أيام الحمل ..

وكان والد الطبيب خفيف الروح ، لا يهوى شيئا سوى الصيد .. ولكن عمله كان يمنعه من التمتع بهذه الرياضة ، كما ان المنطقة ـ التى كان يقيم فيها ـ لم تكن من منــاطق الصيد .. حتى اذا اعتزل العمل ، الفى انه قد هرم وأصبح عاجزا عما يتطلبه الصيد من حركة ونشاط . وكانت زوجته

شديدة التمسك بالدين ، فما كادت ترزق بجان جاك حتى اتخذته سلواها الوحيدة ، واحبته لانها حققت فيه ما كانت تريد من دنياها ، ولانها وجدت فيه عقلا اسرع فهما من عقلها . فما كاد الصغير يبلغ رشده ، حتى اصبحت الام تطيع اوامره وهي التي اعتادت في الماضي الا يعارض لها أحد أمرا !

والحق أن جان جاك كان عاقلا ، محبا للدراسة ، عنيدا ورقيقا في آن واحد !.. ولما بلغ العاشرة ، أرسل الى المدرسة الداخلية .. وقدر لاحد مدرسيه ان يعثر معه — ذات يوم — على كتاب طبي، فظن فيه مختلف الظنون ، وبدأ يستجوبه . واذا الصبي يعترف بأنه كان يقرأ الكتاب الطبي لكي يتعلم ، وانه لا يجد مبررا لادانته لقراءته مثل هذا الكتاب ، ان من الخير للمدرسين أن ينصرفوا الى زجر من لا يستذكر دروسه من التلاميذ ، بدلا من مضايقته هو لانه يستذكر مايروق في نظره ! .. وثار ناظر المدرسة — اذ سمع هذه الاجابة — ولكن « جان جاك » أضاف اليها أنه لاداعي لان يجشم الناظر نفسه عناء طرده من المدرسة ، لانه اعتزم تركها من تلقاء نفسه ! .. وسرعان ماجمع كتبه — ومن بينها الكتاب الطبي الذي ضبط متلبسا بقراءته — وعاد الى منزله، وأخبر أهله بما اعتزم صنعه .. وتبين الوالدان أن من العبث اعتراض رغبته ، فوافقا على أن يدرس وحده في البيت ، معتمدا على نفسه ، منذ ذلك الوقت . ولما كان دوي أجراس الكنيسة يزعجه — كما كان يزعج والدته عندما كانت تحمله في أحشائها — فقد رؤي أن ينتقل « جان جاك » الى المنزل المنعزل ، حيث كان يعيش جداه ، وقد أشرفا على نهاية حياتهما ..

ولا ريب أن ذكرى الاعوام التي قضاها « جوفر » في ذلك المنزل المنعزل — بين الدراسة والتفكير — لن تنمحي من ذهنه

.. كان شخصا غريبا ، يجد فى عزلته سرورا ، وفى استذكاره -دون رقابة أو اشراف - ما يثير زهوه .. واستطاع أن يدرس الانجليزية والالمانية وحده بمساعدة الموسوعات والقواميس .. وتصادف ان كان يسكن - فى المنزل المجاور له كاهن مريض كانوا يحملونه الى الحديقة كل صباح ، عسى أن تبعث الشمس بالدم حارا فى عروقه . فما كاد « جان جاك » يراه ، حتى قفز عبر الحاجز الذى كان يفصل بين المنزلين ، وتودد الى الكاهن ، وأخذ يجاذبه الحديث .. وقدر لهذا الكاهن أن يؤدى لجوفر خدمة جليلة ، اذ فتح له أبواب مكتبته الخاصة ، فبدأ الفتى يقرأ كل ماكان يروق له ، حتى وقع فى يده - ذات يوم - أحد مؤلفات شوبنهور فأعجب به ، وأصبح أساسا لدراسته المستفيضة فيما بعد .. ومن ذلك اليوم أخذ يتعمق فى البحث والاستذكار ، حتى تبين - فى النهاية - أنه جاهل ، وان ماحصله من العلم لم يكن يستحق الذكر !

وكان جده وجدته قد توفيا - فى تلك الاثناء - وانتقل والداه الى المنزل المنعزل ليكونا على مقربة منه . ولكنه ما لبث أن طلب منهما أن يسمحا له بالانتقال الى باريس ليتمم دراسته هناك . وسألته أمه ، وكانت بخيلة : « وكم تتكلف الحياة هناك ؟ » . فأجابها بعد أن أعد حسابا دقيقا : « مائة وعشرين فرنكا فى الشهر » . ولم تجد بدا من أن تجيبه الى رغبته .

وقضى فى باريس ثمانية أعوام ، كان ينفق فى كل شهر منها هذا المبلغ الضئيل . ولم تبهره باريس - تلك المدينة التى تجذب اليها الشباب - ولم يغره جمالها ، فلم تكن - فى نظره - أكثر من مكتبة هائلة ملأى بالكتب التى يمكن أن ينهل منها كل راغب فى العلم .. والتحق بكلية الطب ، واجتاز امتحاناتها بنجاح ، ثم التحق بأحد المستشفيات لكى يقضى

مدة التمرين ، وهو سعيد بأن شق طريقه، وبأن اصبح يمارس واجبا يتلاءم مع حبه للانسانية .

***

وكان ـ حتى ذلك الوقت ـ يعيش كراهب متنســك ، باستثناء هفوات بسيطة كانت تتغلب عليه فيها عاطفته الجنسية. الا أن حادثا بسيطا ، وقع فى حياته الخاصة ، فوضع فى عنقه ذلك القيد الذى لم يكن يفكر فيه ابدا .. اذ لمح ذات مساء ، وهو يطوف بالمرضى فى المستشفى ، وجها لم يكن قد رآه من قبل . وكانت صاحبته امرأة صغيرة السن ، فى حوالى العشرين من عمرها ، تشكو من حمى مصحوبة بآلام فى رأسها .

ولحظ جوفر جمالها غير العادى .. ولاول مرة فى حياته ، استغل وظيفته كطبيب ، ففحص المريضة فحصا دقيقا لم يكن ثمة داع له ، لان أعراض الحمى كانت واضحة على وجهها . وازداد اعجابا بالشابة بعد أن فحصها ، فقد كانت مثالا حيا للجمال المجسد . وجاذبها حديثا قصيرا ، كما اعتاد أن يفعل مع كل المرضى ، ايمانا منه بأن لهذه المباسطة من الطبيب للمريض أثرا فى الشفاء .. وأخبرته المريضة ـ بلغة فرنسية كثيرة الاخطاء ـ بأنها ايطالية تدعى « ياسمينه فاكيو » ، وانها كانت تعمل كنموذج حى للمصورين (موديل) ، وان سنها واحد وعشرون عاما .. وفى اليوم التالى ، أطال الطبيب جوفر الوقوف أمام فراش الايطالية الحسناء ، وأراد أن يكرر فحصها ، زاعما أن الفحص الأول لم يكن كافيا ! .. ولكن «ياسمينه» عارضت ذلك ووجهها مضرج بحمرة الحياء. فخجل جوفر من نفسه ، ولم يلح فى ضرورة الفحص . وكما اعترف الاثنان لبعضهما ـ فيما بعد ـ أخذ كل منهما يفكر فى الآخر منذ تلك الليلة !

ونمت بينهما المودة ، فأصبحت المريضة تبتسم للطبيب ، وأصبح الطبيب يكثر من الحديث الى المريضة فى عطف ورقة. وفى الساعات التى كانت الحمى تشتد فيها على الفتاة ، بات الطبيب يلازمها ولا يبرح فراشها .. وكان — فى تلك الساعات — يقرأ فى عينيها اللتين تزيدهما الحمى اتقادا ، رغبة شديدة فى مبارحة المستشفى والتخلص من الاوجاع .

وكانت على استعداد لحبه .. وقد استغرب « جوفر » ذلك، اذ كان يعلم أنه ليس مليحا، وكان شكل رأسه يثير تقزز كثير من النساء . ولذا أثر فيه الحب الذى أظهرته له « ياسمينه » .. والحق أن الشابة كانت تتعجل الشفاء لتتفرغ الى حبه . وشاء — من ناحيته — أن يختصر الايام التى تفصلهما عن هذه الغاية السعيدة ، فراح يحرض المريضة على الاسراع بمغادرة المستشفى ، ليتمتع بلقائها !.. ولكم ندم — فيما بعد — على ذلك !

وفى صباح ذات يوم ، وقع اذن خروجها من المستشفى .. وزارته فى حجرته قبل خروجها ، فقال لها بصوت خافت : « سأنتظرك فى الساعة السادسة من مساء اليوم ، فى زاوية ميدان مونبارناس ! »

وكان هذا المساء أشبه بليلة الزواج ! .. فما كادا يتقابلان فى الميدان ، حتى التقت شفاههما ، وكأنها كانت مندفعة بقوة قاهرة .. وبلغ من شوق كل منهما الى الآخر ، أن تبعت « ياسمينه » صديقها الى مسكنه ، دون أن يتناولا الطعام.. ولكم اشتد خجلها — وارتباكها — وهو يساعدها على خلع ملابسها — مع أنها كانت تقف كل يوم عارية أمام المصورين كالتمثال الصامت ! .. وتمتمت تقول : « اخشى أن يموت الحب سريعا بهذه الطريقة ! » .. ولكن حدسها لم يصدق . فقد ازداد حب « جوفر » لها بعد استحواذه عليها ، لاسيما

حين اكتشف ـ لفرط دهشته وذهوله ـ انها لم تكن قد فرطت فى شرفها من قبل !

وأخذ يسألها فى فترات الراحة ـ فى تلك الليلة ـ عن ماضيها وحاضرها ـ كأنه زوجها الشرعى ـ مدفوعا بعاطفة من الحب والعرفان لما اتاحته له من متعة .. وعرف انها تنتسب لأسرة ايطالية ، يتعاون افرادها على كسب المال ، وقد ظلت عامين تشتغل لتعول أهلها ، الى أن توفيت والدتها منذ ستة أشهر ، فأخذ والدها وشقيقها فى شرب الخمر وامتنعا عن العمل ، وشرعا فى الاساءة اليها الى حد ضربها ، والقيا عليها وحدها عبء العمل للحصول على المال .. ولقد مرضت فلم يحفلا بمرضها ، ولكنها أحست يوما بأوجاعها تتفاقم ، فلم تر بدا من أن تتسلل ـ دون علم منهما ـ الى المستشفى !

وقال جوفر : « ولكنهم سيبحثون عنك بلا ريب ! »

فأجابت : « ولكنى بلغت العام الواحد والعشرين من عمرى ، فأنا حرة ! .. وفوق ذلك ، ستحمينى أنت ! »

وكانت تقول هذه الكلمات بلهجتها الايطالية الساحرة ، وتقطعها بالقبلات ، حتى استولت على لب جوفر تماما ، واستلت من نفسه ذلك النفور من المرأة ـ الذى شب معه منذ قرأ للفيلسوف الالمانى « شوبنهور » ـ وبدأ يحلم بنعيم الحب وأثره فى الفكر الانسانى .

***

وبعد خمسة اسابيع من هذه العلاقة ، أسرت « ياسمينه » الى صديقها بأنها تشك فى حالتها الصحية ، فداخل القلق « جوفر » ، اذ ادرك انه قد اوشك أن يصبح ابا ، وان عليه أن يعمل بجد ـ منذ الآن ـ ليكتسب من المال ما يكفى لان يعول الطفل القادم .. فقد كان ـ حتى ذلك اليوم ـ لا يعمل

لكسب ، وانما للاستزادة من الدراسة ... كذلك عرف أن تلك العشيقة - التى ستصبح أما - ستحول بينه وبين العودة الى بلدته وقتا ما ، ولذلك اعتزم الاشتغال بالتدريس ، حتى لا يسأل والديه نقودا .. واستمرت حياتهما هادئة ، تسير على وتيرة واحدة ، الى أن وضعت « ياسمينه » طفلة اطلقا عليها اسم « كاميل » !

وبدا الضعف والهزال على الأم بعد الوضع ، وتغيرت طباعها تغيرا طفيفا ، فلم تعد الفتاة الممتلئة سرورا وبهجة . على أن ذلك لم ينل من حبهما ، بل تضاعف حب « جوفر » لها وهو يرعاها بعنايته .. وكانت تلك الشهور الموزعة ، بين الحب والدراسة ، هى أسعد أيام حياته .

ولم تكن « ياسمينة » تشاركه عقليته وافكاره ، اذ كانت أقل منه ذكاء بكثير .. بل أن ذكاءها لم يكن يتعدى ذكاء الاولاد الصغار . بيد أن جوفر لم ير فى ذلك ما ينتقص من قيمتها ، لانه كان ممن يؤمنون بسيادة الرجل على المرأة ، التى كان يعدها مجرد آلة لانجاب الاولاد ، الى ان حملته تجربة الحب على أن يعدل عن رأيه قليلا ، فقد أخذ - منذ ذلك الوقت - يعد المرأة سندا هاما للرجل فى حاجياته الضرورية ، وكانت هذه الفكرة آخر مرحلة فى تطور تفكيره ، فلم يبق له من احتقاره السابق للمرأة الا ثورة ضد الغرور الذى أوحى اليه بهذا الاحتقار .. ومن ثم أصبح ينظر بكثير من الاحترام والحب الى ذلك المخلوق المقدس - الذى ما وجد الا لراحة الانسانية - والى ذلك المتكأ الوثير الذى يستريح عنده المفكرون !

وادى الامتحان الاخير - عند انتهاء مدة المران - وأصبح طبيبا . واذ ذاك وصل اليه نعى والده ، الذى مات فجأة وهو يتنزه فى الحديقة مع زوجته ، رغم أنه كان يتمتع بكامل صحته . وطلبت الام الى ولدها الطبيب أن يعود اليها لحاجتها اليه ، وهي فى تلك السن المتقدمة ، فسافر « جوفر » بعد

أن ترك ابنته فى رعاية « ياسمينه » .. وكان قد قضى ثمانية أعوام لم ير فيها بلدته ، فما كاد يطؤها بقدميه مرة أخرى - بعد تلك الاعوام - حتى تساءل فى نفسه : كيف أمكنه أن يفارق ذلك المنزل المنعزل طوال تلك الاعوام ؟ !

واستقر رأيه على البقاء فى تلك البقعة الى نهاية حياته . ولم يهتم بقلة عدد عملائه من المرضى ، ولا بكثرة منافسيه من الاطباء ، فقد كان متواضعا فى غاياته ، ولم يكن يبغى أكثر من أن يعيش فى هدوء ، بين امه وزوجته وابنته ، مكتفيا بالدخل الذى يصل اليه من تجارة والده .

ولما دفن الاب «جوفر»، وعاد ابنه الطبيب من المقبرة، امسك بيد أمه واعترف لها بأن له ابنة ، فثارت الام ورفعت يديها الى السماء مستنكرة، ولكنه استطاع أن يهدىء ثائرتها بجملة واحدة ، اذ قال : « سأتزوجها أمام الله ! » .. واتفقا على أن يعود الى باريس ليبرم موضوع الزواج فى أقصر وقت ، ثم يعود مع « ياسمينه » و « كاميل » الى (تونيان) ، ليقيم فى المنزل المنعزل . وسرعان ما حقق ذلك .

ولم يكن للقوم من تسلية فى الارياف - اذ ذاك - سوى بعض المراقص والاحتفالات الدينية . ولهذا فان عودة الطبيب « جوفر » الى (تونيان) صارت مثارا لكثير من الاقاويل . فظن البعض أن « ياسمينه » لم تكن زوجته ، وذهبوا يستقصون أخبارها ، ولكنهم تأكدوا من انها زوجته الشرعية .. واذ ذاك ، راحوا ينسجون الاقاويل عنها ، فزعموا انها كانت عشيقته قبل أن يتزوجها ، وانها كانت ذات سيرة غير حميدة .. بل ادعى بعضهم أنه عرفها فى باريس .. ولا ريب فى أن كل تلك الاقاويل كانت كفيلة بأن تترك أثرا لدى الطبيب « جوفر » ، لو انها وصلت الى مسامعه ، ولكنها لم تصل .. كما أن كاهن القرية تولى الدفاع عن الزوجة الشابة ، لانها كانت تذهب يوميا الى الكنيسة وتعترف ،

وتتنـــاول الاسرار المقدســة ، فأعجب بها وبايمانها ونقاء سريرتها واخلاصها لزوجها وحبها له .. بل لقد بهرته منها شجاعتها وهى تروى له قصة غرامها ، ومن ثم أصبح المدافع عنها ،وأخـذ يعلن للجميـــع أنها اخلص الزوجـــات وانقى الامهات ! .. واذ ذاك فقط ، بدأ أهل (تونيان) يميلـون للطبيب جوفر وزوجته ، فوجدت الشابة من يؤازر الكاهن فى الدفاع عنها ، كما وجد الطبيب عملاء من بين أفراد الطبقة الغنية فى المدينة .. ومع ذلك ، فقـد ظل بعض الناس فى ضلالهم ، واستمروا يهاجمون الايطالية المسكينة ، حتى لقد زعموا أن الكاهن لم يكن يدافع عنها الا لانها خليلته !!

***

ولم تكن المرأة غافلة ــ فى الواقع ــ عما كان يقال عنها ، فأخذت صحتها تضعف يوما بعد يوم وكأن قوة خفية كانت تستل منها الحياة ببطء . وكان « جوفر » يراقب ذبولها بجزع شديد ، فما أحبها فى أى وقت كما احبها اذ ذاك . وأخذ يتهم نفسه ، لانه كان السبب الاول فيما اصابها من مرض ، اذ أن الحمى التى ألزمتهـا البقاء فى المستشفى شهورا طويلة ، لم تكن قد رحلت بكل آثارها ، بل انها خلفت لها مرضا فى الاعصاب لا يشفى .. وازاء ظواهر المرض القاتل ، وليقين الطبيب من انه لن يلبث أن يحرم من زوجته، عاودهما اتقاد حبهما الاول ، فأسلمت « ياسمينه » جسمها لزوجها ــ فى جلد وشجاعة ــ بالرغم من مرضها ، حتى لقد شعر « جوفر » بالندم فيما بعد ، واعتبر ما أتاه معها ــ فى هذه الفترة ــ نوعا من الاجرام يستحق عليه أشد العقاب .

ولم تكن « ياسمينه » تدرك خطورة ما بها ــ اذ ذاك ــ فظلت ابتسامتها تضىء المنزل المنعزل . وكانت تأسر كل من

يقترب منها بلطفها ورقتها .. وأقرت تصرف زوجها عندما عاد ـ ذات يوم ـ بعد جولة فى الريف ، ومعه الخادم البلهاء.. حتى الام ـ أم زوجها ـ التى كانت تكره زوجة ابنها فى بادىء الامر ، انساقت أخيرا الى الاعتراف بجمالها ، والى الاعجاب برقة عواطفها ولطفها . وكم كان غريبا أن يربط التدين بين المرأتين كما ربط بينهما حبهما للطبيب !.. وبهذا التعاطف والتقارب وحدتا جهودهما فى سبيل النفس الصغيرة التى كانت تعيش فى رعايتهما ، أى « كاميل » ، فنشأت هذه فى ظل تربية دينية ، اذ راحت الجدة العجوز تزودها بالثقافة الدينية العلمية فى المنزل ، بينما كانت أمها تصطحبها الى الكنيسة ، وتقدم لها ـ فى كثير من الاحيان ـ صورا مقدسة ..

على أن الجدة كانت ترغم حفيدتها على ارتداء الملابس السوداء البسيطة ، التى لا تكشف عن شىء من محاسنها ، اعتقادا منها بأن الجمال يرتبط بالاثم والفضيحة ، وان الخطيئة دائما تبحث عن مخبأ لها فى وجه المرأة .. بعكس الام التى كانت ترغب فى أن ترتدى ابنتها الملابس الجميلة ، وأن تتزين . وكانت تنبهها دائما الى جمالها ، وتفخر بها ـ أمام والدها «جوفر» ـ كما يفخر المثال بأبدع تماثيله !.. وقد أثر ذلك فى نفس « كاميل » ، حتى جعلها لا تحفل بالدين .. كانت تعاليم الام وتعاليم الجدة تترك فى نفسها آثارا متعادلة ، فأخذت تنظر الى الكنيسة باعتبارها مكانا منعشا ـ اذا اشتدت الحرارة فى الخارج ـ أو مكانا تحظى فيه بنظرات الاعجاب من المحيطين بها .. كما كان من نتائج مسلك المرأتين مع الفتاة ، أن فطنت الى جمالها ، وأن رأت من حقها أن تزهو بجسمها البديع !

وكثيرا ما كانت « كاميل » تتنزه مع امها ، عندما كان ابوها يتغيب فى الريف .. وكان السير على القدمين من أحب الرياضات اليها ، لا سيما حين كانت تقصد مع أمها الى الجسر المعلق فوق نهر الجارون .. اذ كانت لا تكاد تخطو عليه خطوات قليلة ، حتى تتراءى لها (تونيان) بمنازلها وكنائسها .. وكانت الام تسمح لابنتها — فى بعض الاحيان — بالسباحة فى النهر ، بينما تجلس هى على الضفة تراقبها بنظرات الاعجاب ، ثم لا تلبث أن تجد نفسها مسوقة الى أن تخلع حذاءها ، وتخوض فى الماء حتى يصل الى مقربة من ركبتيها .. واذ ذاك كان جسمها يظهر فى أتم صور جماله وابهاها ! .. فاذا انتهت كاميل من الاستحمام ، خرجت لتجفف جسمها فى ضوء الشمس ، مستلقية فوق الحشائش وهى تضحك ، فتمسك بها « ياسمينه » وتغمر جسمها بسيل من القبلات .. فوق ظهرها ، وعنقها ، وكل مكان من جسمها تصل اليه شفتاها !

***

وشغل الطبيب جوفر بزبائنه المرضى ، فترك فتاته فى عناية المرأتين : أمه وزوجته .. ولم يكن يهمه على أى دين تنشأ ، فما كان للدين اعتبار قوى لديه .. بل كان يعتقد أن المرأة هى خير مرب للمرأة ، وكثيرا ما كرر كلمة مونتين : « اننى اتركهن وشأنهن ، حتى لا أغير من خططهن ، واعترض تنفيذ شىء مما يحسن تنفيذه .. ان للبوليس النسائى طرقا سرية فى تحقيق أهدافه ، فمن الخير أن نسلمها له » !

على أن القلق لم يلبث أن خيم على ذلك المنزل المنعزل الهادىء ، اذ ظهرت اعراض المرض ضارية ملحة على

« ياسمينه » ، وبدأت مرحلة الالم .. وكان مرضا لا أمل فى البرء منه ، فأخذ الطبيب جوفر يعنى بتخفيف الاوجاع التى كانت تملأ عينى زوجته الجميلتين بالدموع ، وتضعف من ذراعيها الممتلئتين ، وتزحم صدرها بتهدجات الالم !.. وكان يعالجها بالادوية المسكنة المخدرة ، ويضاعف لها المقدار الذى تتعاطاه منها فى كل يوم .. وكان يدرك انه بذلك يعجل بنهايتها ، ولكنه لم يتردد لحظة واحدة ، وابى أن يتركها تتألم لكى يحتفظ بها لنفسه مدة أطول ...

وظل المرض عاما كاملا ، ينتزع من المرأة — فى كل يوم — جزءا من حياتها .. وفى نهاية ذلك العام كانت « ياسمينه » قد اوشكت أن تنهار تماما ، واستعدت للموت كما يستعد المؤمن . وفى ذات يوم ، أمسكت بيد زوجها وقبلتها تقديرا له ، ثم .. أسلمت الروح !

ويقول مثل عربى : « الموت يدخل الى المنزل ليحتمى من الامطار ، ولكنه فى الواقع ضيف ثقيل .. اذ لا تلبث أن تطلع الشمس ، ولكنه يأبى أن يرحل عن المنزل » ! .. وهذا ما حدث ، فما أن قضت « ياسمينه » نحبها ، حتى تبعتها « مادلين باتو » ، أم زوجها .. إذ ماتت فجأة كما مات زوجها من قبل .. وهكذا وجد الطبيب نفسه وحيدا فى المنزل المنعزل ، الى جانب ابنة لم تتجاوز العاشرة من العمر ، عليه واجب تعهدها بالرعاية والاشراف على تربيتها .

وأبى أن يلقى بها الى مدرسة داخلية ، اذ كان يخشى عواقب تجمع الفتيات فى مكان واحد ، كما كان يخشى تجمع الفتيان .. فصمم على ابقاء كاميل الى جانبه ، وتعهد تربيتها بنفسه .. ولما كانت له فلسفته الخاصة فى النساء ، فقد رأى أن أول واجب عليه هو العناية بنمو الفتاة الجسمى وخاصة فى

دور البلوغ . وكان هدفه يتلخص فى جملة واحدة ، هى : « اعداد الفتاة لكى تكون زوجة وأما » .. أما النمو العقلى ، فقد رأى أن من الكفاية لها أن تتلقى شيئا من مبادىء العلوم البسيطة ، اذ كان مقياس العلم لديه هو الفائدة التى سيجنيها المتعلم منه . أما الفضائل النسوية ، فكان الطبيب « جوفر » يعتقد انها تتلخص فى كراهية الكذب والابتعاد عنه ، والرغبة فى الزواج وتكوين الاسرة .. فهذا ما كان يتمثل له فى زوجته وأمه . ولكنه أغفل العقيدة الدينية التى آمنت بها هذه الام وتلك الزوجة طوال حياتهما ، وأوحت اليه فلسفته بأن فساد المرأة ليس الا نتيجة عدم اهتمام زوجها بها ، وعدم اخلاصه لها ، فاذا وجدت الزوج الذى يوليها الاهتمام والاخلاص ، كان فى هذا غنى عن كل ما قد يرتقب من التعليم والتربية الدينية !

ونظرا لان « كاميل » كانت سلسة القياد ، فقد سهلت له مهمة القيام بوظيفة المربى .. وكان كبير الامل فى انه لن يلبث — بعد امد وجيز — ان يرتاح من عبء الاهتمام بها مادامت فى صحة جيدة .. وفعلا ، كان كثيرا ما يتركها وحيدة فى المنزل المنعزل ، تحت رعاية الخادمة « ارما » الغبية ، التى كانت تسهر على العناية بها باخلاص الكلب الأمين . وكانت الفتاة تسر بوحدتها هذه وتنشرح لها ، فاذا عاد ابوها الى المنزل بعد انتهاء عمله ، وجدها باسمة كما تركها قبل مغادرته . وكان اذا اصطحبها فى زيارة أو عيادة ، وجدها رقيقة ، مسلية ، موفورة البشر ، لاتضايقه فى شىء .

وأخذت « كاميل » تنمو — على مر الايام — حتى أصبحت شابة .. وكان جوفر يلاحظ كيف يهتم الرجال بالنظر اليها ، وكيف تسترعى اهتمامهم اذا خرجت معه متأبطة ذراعه كأنها

زوجته .. ومع ذلك ، فقد ظل قلبها ساذجا ، بريئا ، كقلوب الاطفال .. كانت تعلم انها جميلة ، وكانت تشعر بالفخر اذا سمعت كلمات الاعجاب تقال عنها ، ولكنها كانت تجهل فائدة الجمال وفيم يستخدم ! .. بل انها لم تكن شديدة الرغبة فى معرفة فائدة الجمال أو فى وسائل استخدامه !

ولكن الصبى « لويس لوت » كشف لها عن ذلك السر العظيم !

(٣)

كانت « كاميل » قد رأت لويس للمرة الاولى فى حديقة منزله ، عندما تماثل والده للشفاء ، اذ اصطحبها الطبيب « جوفر » يوما الى منزل لوت ، وتركها تنتظره فى الحديقة . وتصادف أن كان لويس عائدا من المدينة ، فالتقى بالفتاة حيث تركها أبوها .. ولم يتبادلا أى حديث ، وان رمقت كاميل الفتى بنظرة الفتاة الخجول التى بدأ الشعور الجنسى يدب فيها . أما هو فقد خانته عواطفه ، وأخذت ارادته تحارب الخجل الذى خامره اذ رآها ، فحياها فى نهاية الامر برفع قبعته ، وأسرع بالدخول الى المنزل .

ولم يتحدثا قط فى الايام التالية .. الى أن كان اليوم الذى تمكن فيه « لوت » المريض من النزول الى الحديقة ، وهو مستند الى ذراعى زوجته وطبيبه جوفر .. وهناك ، أخذ يتأمل - من مقعده - المنزل والحديقة ومزروعاتها ، وقد أدرك أن الموت سيحرمه من كل ذلك عما قريب .. وكان لويس ينظر الى والده المريض نظرة حب وعطف ، بينماتقدمت كاميل من والدها الطبيب جوفر ، ليقدمها الى « لوت » .. ولسوف يظل العالم - الى الابد - محكوما بقوة الجمال ،

اذ لم يكد أهل المريض يرون « كاميل » حتى بهرهم جمالها ، وأحسوا بعاطفة نحوها تدب فى قلوبهم .

أما هى ، فكانت قد بدأت تدرك قوة جمـــالها وتأثيره .. لذلك دارت عليهم بنظرها ، حتى استقرت عيناها أخيرا على لويس ، فاحمر وجهه خجلا ، وأخذ يحاول استعادة سكونه بمحادثة الطبيب ، بينما سأله أبوه : « لويس ! .. هل رأت الآنسة كاميل حديقة منزلنا ؟ » . فهز لويس رأسه ، وقال لكاميل : « هل تسمحين باصطحابى ، أيتها الآنســة ، حتى أريك الحديقة ؟ .. أظنك لم تسيرى فيها كلها ؟ »

وسارا جنبا الى جنب . وما لبث الصبا أن ألف بينهما ، فلعبا معا ببساطة ، حتى أن الطبيب اضطر الى مناداة « كاميل » عدة مرات ، عندما أراد الانصراف الى منزله . وعادت اليه الصبية أخيرا ، وقد احمر وجهها ، وتفصد منه العرق .. وما ان غادرت المنزل حتى شعر لويس بحاجته الى الانفراد والوحدة ، مما دفعــه الى الخروج ليتريض فى أبعد الطرق الخالية من المارة .. وهناك ، استعرض دخيلة نفسه ، ولاحظ — باستغراب — ذلك الاثر الذى تركته مقـابلة « كاميل » وملامستها ، وراح يسائل نفسه : أهذا هو الحب ؟ .. لقد سمع عن هذه العاطفة فى الكتب ، وفهم أنها مبعث النشـاط الذى يتحكم فى الانسانية كلها .. وكان يتطلع الى قدومها وهو متقد الروح ، كأنها الشىء الذى سيجعل منــه رجلا ، وينمى قلبه حتى يجعله موازيا لعقله !

وظل بقية اليوم يحلل تلك العـاطفة الجـديدة التى بدأ يشعر بها . وكان تأثره بالغا ، فقد امتلأ قلبه وعقله بالامل ، وبالحياة البهيجة .. وخيل اليه ان كل شىء قد تغير بسبب التطـور الذى حل به .. حتى تلك البقعة من الارض التى



.. وسارا جنبا الى جنب وما لبث صباهما أن ألف بينهما فلعبا معا ببساطة .. (انظر صفحة ٣٤)

تشغلها حديقة الدار ، والتى طالما ألفها .. لقد بدت له ـ اذ خفق قلبه فيها بالحب لاول مرة ـ فى شكل جديد ، وأصبحت تتراءى له كفردوس حبيب ، أخذ الحنين اليه يعاوده ، عندما قدر له أن يغادر (تونيان) مع اسرته .

وقدر لكاميل أن تستحوذ بسهولة على ذلك القلب الممتلىء نقاء وطهرا استحواذا تاما . وما كان ذلك راجعا الى جهل لويس بأسرار الحب ، فانه كان قد قرأ عنه كثيرا .. ولكن نشأته وحيدا فى المنزل ، دون زميل أو رفيق ، كانت قد نأت به عن المؤثرات الخلقية السيئة . لذلك لم تكد صورة هذه الفتاة الجميلة تصل الى نفسه ، حتى وجدت روحا نقية بيضاء ، تسكن اليها فى غير عناء ..

***

ورأى لويس « كاميل » مرتين أو ثلاثا بعد هذه المرة . ولما بدأ يستذكر دروسه فى المنزل ، وتطوع « جوفر » بمساعدته فى العلوم الرياضية ، أخذ يتردد ـ بعد ظهر كل يوم ـ على المنزل المنعزل الذى يسكنه الطبيب مع ابنته و « ارما » الخادمة .. وكثيرا ما كان الطبيب يستدعى لعيادة مريض ، فيبقى لويس مع كاميل .. ومع تكرر الزيارات ، ارتفعت الكلفة بينهما ، وأصبحا صديقين .

وكانت ابنة جوفر تجهل الحب جهلا تاما ، وتكاد تجهل اسمه كذلك ! .. وكانت صبية مطيعة ، تفعل كل ما يأمرها به لويس ، واعتادت أن تناديه بما يعبر عن رغبتها : « يازوجى ! » .. وكثيرا ما كانت تضج بالضحك اذا فاجأته وهو يطيل اليها النظر ، فلم يكن يرتد الى نفسه الا حين تضع يدها على ذراعه قائلة : « فيم تفكر ؟ »

وأخيرا ، سئما اللعب فى حديقة المنزل المنعزل ـ فى كل

يوم – فشرعا ينظمان رحلات الى الغابة الصغيرة الممتدة وراء الحديقة ، والتى أطلق عليها لويس اسم « الغابة العذراء » . وقد ظلا أياما يحاولان اختراق الحاجز المتين الذى كونته النباتات والحشائش . وما كادا يصلان الى جوف الغابة ، حتى عجزا عن اكتشاف دروبها ، اذ كانت مهجورة منذ زمن بعيد .. على انهما لم يلبثا – بعد قليل من البحث – ان عثرا على الطريق الرئيسى – وكان عرضه مترين – وان مضيا فيه بحذر ، وهما فى أقصى حالات الفضول ، مشوقين الى الاكتشافات التى توقعا أن يعثرا عليها . وكانت أصوات الطيور والحشرات تصل الى مسامعهما ، مختلطة بأصوات أخرى بعيدة .. وشعرا بالخوف ، فاستندت « كاميل » الى ذراع صديقها . ولكن الطريق مالبث أن اتسع أمامهما ، وبدا لهما الافق عن بعد ، كما ظهرت الارض تغطيها الحشائش والازهار البرية ، وتتوسطها بركة صغيرة من الماء الراكد ، نمت على سطحها بعض الاعشاب . وعند حافة البركة وجدا مقعدا حجريا واسعا .

ووقف لويس وكاميل فى هذا المكان وقد اشتبكت أيديهما ! .. أبدا لم يشعرا بانفرادهما وتقاربهما كما شعرا فى تلك الساعة ! .. وكان ما يحيط بهما من مناظر غريبة ، برية ، يدفعهما الى الاعتقاد بأن العالم أصبح بعيدا عنهما كل البعد .. وما لبثت أصوات الطيور أن تجاوبت مرة أخرى ، بعد ان كانت قد سكنت مدة قصيرة ، اثر وصول الغريبين الى ذلك المكان .. كما عادت الحشرات والضفادع تعبث تحت أقدامهما .. وكان ضوء النهار ضاربا الى الخضرة ، بسبب الاشجار التى كانت تظلل المكان وقد تعانقت فروعها فى جوه .. وما كاد كل من الصبيين ينظر الى وجه الآخر ، حتى بدا

الاستغراب عليهما .. وتمتمت كاميل بصوت يغاير صـوتها العادى :

ـ ما أغرب هذا المكان ! .. لنجلس على هذا المقعد !

وبعد أن نظفا المكان ، جلسا جنبا الى جنب ، وظلا برهة لا يتحادثان ، وقد أثار الســكون المحيط بهما شـيئا من الاضطراب فى قلبيهما . وكان لويس يشعر بسرور خفى لهذا الاضطراب .. وحاولت « كاميل » أن تضـحك ، وقالت تخاطبه :

ـ لماذا تنظر الى هكذا ؟ .. كأنك لم ترنى قبل هذه المرة !!

وتمتم لويس قائلا : « لقد رأيتك من قبل حقا ، ولكنك اليوم جميلة جدا ! »

وكانت هـذه هى المرة الاولى التى يقول لويس فيهـا لكاميل هذه الكلمة ، فكان لها فى نفس الفتاة وقع اثار زهوها واعتزازها بجمالها ، ورفعت عينيها الى عينى « لويس » ، وراحت تحدق فيهما ، وقالت مدفوعة بقوة تلك الغريزة التى تملى على بنت حواء من الكلمات مايصل الى قلوب الشبان فيثيرها : « وهل تحبنى ؟ ! »

وهكذا انتهت مرحلة الاسئلة التمهيـدية .. وظل لويس برهة لايتكلم ، ثم قال : « كاميل ! اننى أحبك حبا لا يمكنك تصوره !.. أحبك الى درجة اننى لا أفكر فى شىء غيرك ! » .. وحمدت له هذا التصريح ، برغم انها لم تكن قد كونت بعد فكرة عن معنى كلمة « الحب » . وما لبثت أن قالت له متمادية : « اذن ، هل لك أن تقبلنى ؟ ! »

ومالت ـ وهى تقول ذلك ـ حتى أسندت رأسها الى صدر صاحبها . وشعر بحرارة جسمها ، واشتم رائحة معطرة لطيفة تهب من أعطافها ، وكأنما الازهار الجميلة التى تحيط بهما

قد خلعت اريجها على الحسناء .. وذاب جمود الصبى ، فانحنى على الوجه المليح ووضع فمه على الجبهة ، ثم انحدر الى العينين .. وكانت « كاميل » قد أغلقتهما ، فأخذت الجفون تختلج اثر كل قبلة .. وما لبثت الصبية ان رفعت رأسها ، وأرادت أن تقبل صاحبها بدورها ، ولكنه حاول ان يتخلص منها ، فقفزت الى ركبتيه ، وطوقته بذراعيها ، والتصق خداهما .. وفقد « لويس » وعيه تحت ضغط ذلك الجسم النسوى الناعم ، الذى ارتمى عليه .. وفكر فى الموت وهو فى هذا الوضع ! .. وتمتم : « كاميل ! .. كاميل ! » .. وأحس فى تلك اللحظة بشعور غامض ، عرف منه أن مايكون بين المتحابين لايقتصر على الاعجاب والعطف فقط .. بل ان هناك شيئا آخر أقل نقاء من هذين .. وأروع منهما !

ولم يكن يجهل ذلك الشعور ، ولكنه لم يكن قد تذوقه . لذلك ثار عليه حياؤه ، وتملكته الرغبة فى نقاء الحب الذى يكنه لكاميل ، فأراد أن يدفع عنه ذلك السرور الغامض ، وأن يتخلص من الذراعين اللتين طوقتاه ، وأن يستعيد سيطرته على نفسه . بيد انه لم يجد القوة ولا الشجاعة لتنفيذ ذلك، اذ تغلبت عليه قوة اليقظة الاولى للحس ! .. وكانت «كاميل» تراقب اضطراب صديقها باهتمام ، وتثبت عليه عينين باسمتين ، وكأنها تحاول ان تقرأ فى نظرته المضيئة سر ذلك الاضطراب الذى كان يزعجها .. وتملكتها الرغبة فى أن يضمها اليه . وخطر ببالها أن الحجاب الذى كان يمنعها من رؤية الحقيقة خليق بأن يتمزق ، لو ان قبلتهما طالت لحظة أخرى!

***

وقطع عليهما حبل السكون طائر يغرد فى أعلى الاغصان ، فما كاد صوته يصل اليهما حتى عادت اليهما غريزتهما الاولى

.. غريزة الاطفال . وتمثل لهما فى تغريد الطائر نداء الحب والالم ، فجمدا فى مكانهما ينصتان الى ذلك الصوت المنبعث من الغابة العذراء ، وقد خيل اليهما أنه ليس سوى حديث سرى يصل الى قلبيهما فيفهمانه . وسكن الصوت فرفعا أنظارهما الى أعلى الاغصان يبحثان عن صاحبه .. واذا به بلبل !

واختفى الطائر كما لو كان قد شعر بأنه عكرعليهما خلوتهما .. ونهضا فتابعا السير دون أن ينبسا ببنت شفة ، مبتعدين عن البركة ، مستأنفين السعى لاكتشاف دروب الغابة . ولم ينقض النهار حتى كانا قد عثرا على ثلاثة منها ، وازاحا عنها الحشائش والنباتات .. ومن ذلك اليوم أصبحت الغابة العذراء مكانا مختارا لنزهاتهما ، وأخذ اهتمامهما بارتيادها يزداد فى كل يوم ، فما لبثا أن عثرا على الدروب القديمةالتى أفضت بهما الى المنزل الذى كان متواريا بين الاشجار !

كان المنزل قديما متداعيا ، له باب مغلق ذهبت الشمس والامطار بلونه . وحاول لويس عبثا أن يفتحه ، فلما استعصى عليه، أحضر قطعةمن الحديد ـ من منزل الطبيب ـ وعالج بها فتح نافذة من نوافذ الطابق الاول . وكان المنزل قد هجر منذ زمان طويل ، فكأنما لم يكن له من مالك ، ولذا أقدما على فتحه باطمئنان ، دون ان يساورهما احساس بأن فى عملهما أى خطأ .. ووفقا ـ بعد مجهود بسيط ـ الى فتح النافذة ، فدخلا الدار خلالها ، وهما يشعران بفرح المكتشف اذا عثر على شيء جديد !

وأخذت كاميل تضحك وتصفق بيديها ، وتسرع الى فتح الصوانات (الدواليب) والخزانات . . وعثرا على تلك الاشياء التى لا توجد الا فى المنازل المهجورة ، كزجاجات الشراب

الفـارغة ، والآنية المهشمة .. وكانت الغرف ـ عـدا غرف الطابق الاعلى ـ خالية من الاثاث ، ورائحة التراب والعطن تنبعث من كل مكان . وانطلق الصبيان يتجولان فى ذلك المنزل المهجور وقد اشتبكت يداهما .. وكانا يفـاجآن ـ فى بعض الاحيان ـ بأصوات غريبة تزعجهما ، كصوت الخشب القديم وهو يئن تحت أقدامهمـا ، أو صـوت فأر يخرج من أحد الاركان ويجرى فى الغرف الخالية من الاثاث .. واذ ذاك ، كانت « كاميل » تلتصق بصديقها تنشد حماه !

ذلك المنزل العتيق الخاوى ، وتلك الغابة العذراء الصغيرة ، أصبحا ملكا خاصا لهما .. وقد حدث فيما بعد ـ عنـد ما أخذا يذكران الماضى ـ أن اعترفا بأن المنزل وغابتـه كانا ، بالنسبة لهما ، أول جنة حافلة بالشعر والخيـال ، حيث تبادلا الضمات الاولى .. وكثيرا ما كانت « كاميل » تفاجىء « لويس » بالارتماء على صدره ـ اثناء لعبهما ـ وهى مبللة بالعرق لكى تسأله فى بساطة :

ـ هل تحبنى ؟

فـكان يجيبهـا فى أناة وجد : « نعم يا كاميل ! .. كل الحب ! »

وبلغ من سحر كلمة « الحب » وطعمها المعسول ، أن أخذا يكررانها بلا انقطاع ، دون أن يسأما ذكرها أو سماعها !

وبعد أن مر عليهما بعض الوقت وهما يتقابلان كل يوم بلا انقطاع ، فى تلك الجنة المهجورة ، أخذا يتذوقان نوعا آخر من النعيم ، غير اللعب والاختباء ومطاردة كل منهما الآخر .. فقد اهتديا الى متعة النزهة جنبا الى جنب وقد تشابكت أصابعهما ، ثم الجلوس على الحشائش أو على جذع شجرة مقطوعة . واذ ذاك ، كان صوت البلبل ينطلق أحيانا من أعلى

الاشجار .. ولا بد انه كان نفس البلبل الذى سمعا تغريده عند ما تعانقا لاول مرة عندالبركة. وكانا يحاولان دائما رؤية ذلك الصديق - صديق وحدتهما - دون أن يوفقا .. كانا يتوقان الى رؤية ذلك الصديق الذى كان يقص عليهما أشياء عجيبة فى تغريده .. وبالرغم من انهما لم يكونا يفهمان لغته، الا أن انغامه كانت بالغة التأثير فى نفسيهما .. وفى قلبيهما !

***

وفى يوم من الايام ، أقبل لويس على كاميل فى حزن ، وقال : « لقد وصل الى والدى خطاب من باريس ، يحمل نبأ ترقيته الى منصب أعلى ، وسأضطر الى السفر الى الشمال .. الى مدينة (مرفيل) ، حيث موطن والدتى وخالى » . فسألته الصبية فى لهفة : « اولابد من أن تسافر؟ »

- نعم ، لابد من ذلك .. افتريدين أن يتركونى هنا ؟ .. سوف نفترق وقتا طويلا !

وما ان تبينت « كاميل » أن لويس سيفارقها ، حتى أحست بحزن شديد ، وأخذت تبكى .. واذ جفت دموعها ، أخذت تسأله عن مدينة (مرفيل) ، فذكر لويس أنه مر بها - ذات مرة - فى صغره ، وكانت عبارة عن منطقة منبسطة ، تكسوها المزروعات الخضراء، وعلى مبانيها مسحة من القدم. وأسرع الاثنان يبحثان فى أطلس جغرافى - وجداه بمكتبة الطبيب - عن موقع (مرفيل) فلم يعثرا عليها ، ولكنهما عثرا على مدينة (ارمنتيير) الملاصقة لها ، وأخذا يقيسان بأنظارهما المسافة الشاسعة التى تفصل هذه المدينة عن (تونيان) ، وهى تعادل طول فرنسا كلها .. وما لبثت « كاميل » ان تساءلت : « ومتى تسافر ؟ »

— عند ما يحـــال الموظف الموجود هناك الى المعـــاش ، وأحسب أن هذا لن يتم قبل ثلاثة أشهر .

وفى خلال تلك الاشهر الثلاثة الباقية ، ازداد حبهما واتخذ مظهرا جديا يختلف عن المظاهر السابقة .. فامتنعا عن اللعب تماما ، وأخذا يقضيان النهار كله معا ، وكل منهما لا يـكف عن تأمل وجه الآخر . . وأخذ لويس يبحث بكل الطرق عن كل مايبقى فى ذاكرته .. فكان يقبل « كاميل » — وهو يسير الى جانبها فى الغابة العذراء — ويقول لها : « اذكرى — بعد سفرى — انى قبلتك هنا، بالقرب من هذه الشجرة المرتفعة !»

وكذلك هى — الفتاة التى لم تكن تكترث لشىء — بدأت تشعر بذلك الحزن العميق الذى يخامر الانسان عند اقتراب ساعة الفراق . وكانت — كلما دنا اليوم المحدد — تفطن الى تولد شعور جديد فى نفسها ، لم يسبق لها أن أحست بمثله ... بدأت تفطن الى عاطفة جامحـــة ، أقوى من ذلك الحب الذى كانت تكنه لوالدها . فكانت تسرع الى الصبى وتستند الى كتفه . ويظل الاثنان على هذا الوضع ساعات طويلة دون أن ينبسا ببنت شفة .. ورأت « كاميل » يوما صورة رجل يقبل امرأة فى فمها ، فشغل بالها بالتفكير فى وقع هذه القبلة ، وأرادت أن تطلب الى « لويس » ان يقبل فمها ، لولا ان شيئا من الخجل صدها ! .. وأخذت فى بعض الاحيان تمثل امامه دور الحسناء التى لا تهتم بالرجل ، ولا تحفل بحديث غرامه ، وتتظاهر أمامه بالبرود .. ذلك لانهـــا كانت كلما تعمقت فى الحب ازدادت علما بفن استغلال جمالها ، وشعورا بقيمة ذلك الجمال .. فكانت تسحب يدها — أحيانا — من قبضتى « لويس » ، وتعرض عنه ، وترفض أن يقبلها ، وتمثل معه — فى نفس الوقت — مواقف الاغراء المتعددة ، التى لا يعرف

أحد أى شيطان رجيم يوحى بها الى أطهر الفتيات واصغرهن سنا !

وكان لويس يبدى شيئا من الجلد ، اذ كان يريد أن يحتفظ بقوة ارادته حتى لا يظهر بمظهر الضعف ، ولكنه كان ــ عندما تجول فكرة الفراق بفكره ــ يشعر باضطراب قلبه ، فيذكر حبيبته بالبعاد المرتقب ، ويقول لها : « هل آلمتك ؟ .. سامحينى ، وارجعى الى ! .. لن أستمتع بصحبتك بعد الآن الا مدة قصيرة ! »

وكانت كاميل أقرب الى المرأة سنها الى الفتاة ، فاذا الحب يمتزج فى فؤادها بالالم والاسى ، ويقودها ــ أخيرا ، وبكل سرعة ــ الى الحس المرهف .. كانت كالزهرة اذ تتفتح أكمامها . ففى الايام الاخيرة التى قضياها معا ، بدأت هى الاخرى تشعر بأنها أصبحت ذات مزاج سريع الانفعال ، فكانت ترتمى أحيانا على عنق « لويس » وقد ملأت الدموع عينيها ، أو تأخذ بيديه وتقبلهما بلهفة ــ وفى اخلاص الحب النقى وطهره ــ وهو يحاول انتزاعهما .. ولكنها لم تكن تفعل ذلك الا نادرا ، وانزعج لويس اذ رأى تصرفاتها تتعدى أعمال الفتاة البسيطة الصغيرة ، وأخذ ينظر الى الامر بعين الجد !

وفى مساء اليوم السابق للسفر ، كان الاثنان يتنزهان جنبا الى جنب ، وقد استولت عليهما نوبة من الوجوم .. ودخلا الى الغابة العذراء ، التى كان الصيف قد بدأ يجفف من أغصان أشجارها .. وكان شهر يونيو قد أوشك على الانتهاء ، والشمس قد بدأت تجنح للمغيب ، فران السكون على الكون .. وما لبثا ان رأيا ــ فى ضوء الشمس الضعيف المتخلف على فروع الاشجار ــ طائرا صغيرا داكن اللون ، يتنقل على فروع شجرة ، ويقفز بشكل يدل على الحزن ،

ويفتح جناحيه أحيانا ، ثم يلقى بجسمه الى الامام وكأنه لم يؤت مقدرة على الطيران . وأمسك لويس بكاميل وقال لهـا بصوت ضعيف : « انظرى .. هذا هو البلبل ! »

وكان هو البلبل فعلا .. ذلك الطائر الضعيف الذى أطرب الغابة العذراء حينا من الزمن ، وكان يهم بالطيران ، وكأنه ـ هو الآخر ـ يريد أن يهجر تلك البقعة من الارض التى أحب فيها وغنى ! .. وأخذ الصبى والفتاة يتبعـانه بنظراتهما ، وقد ضغط كل منهما على يد الآخر برفق وعطف ، فقدذكرهما البلبل باحدى الساعات المضطربة الجميلة فى حياة حبهمـا .. وامتلأت عيونهما بالدموع ، كما استفاض شعورهما وهما ينظران الى ذلك الطائر الصغير ، الذى ظل متواريا عن أنظارهما حتى ذلك الوقت وكأنه روح خفية غامضة ، ثم ظهر لهما فى تلك اللحظة دون أن يهابهما أو يحفل بهما .. وسمح لهمـا بالنظر اليه ، لانه كان قد كف عن التغريد !

***

واذ سافر لويس ، شعرت كاميل بالاسف على فراقه مدة من الزمن .. كانت تدرك أنه أسـدى اليها صنيعا ، لا لأنه أحبها ، وانما لانه كان أول من صارحها ـ بعد أمها ياسمينه ـ بأنها جميلة جدا ! .. فقـد أدخل بذلك على قلبها السرور الذى تشعر به المرأة حين تقف أمام المرآة وقد تملكها الاغتباط لذلك الضياء الذى يشـع من عينيها ، وتروح تقترب من المرآة ـ تارة ـ وهى تنعم النظر فى الطيف المنعكس على صفحتها ، وتبتعد ـ تارة أخرى ـ لترى شـكلها من بعيد ، ثم تعود وتمسح المرآة بأصابعها ، لتزيح عنها ماقد يغشى صفحتها من بخار أنفاسها ، لتجلو صورتها التى تتغزل فيها !

على أن ذكرى ذلك الصـديق الصغير لم تلبث أن أخذت

تتلاشي بسرعة من قلب الفتاة ، كما تتلاشى تلك الاشكال التى ترسم على الرمال فلا تلبث الريح أن تذروها شيئا فشيئا . . ولقد تلقت من لويس رسالة — بعد سفره ببضعة أيام — فابتسمت لرقة أسلوبه ، ولما امتاز به من تحفظ وهو يروى لها نبأ وصوله الى (مرفيل) ، وما أحس به حين رأى مناظر الشمال المتماثلة التى تبعث السأم الى النفس ، وما تملكه من حزن اذ افترق عن حبيبته الساحرة الجمال . وأخبرها انه استأنف حياة الدرس ، ثم استطرد قائلا : « وقد أنست الى زميل هو أول الفصل ترتيبا ، ولكنه أكبر منى سنا وحجما ، واسمه روبير كلاييس . ونحن لا نكاد نفترق طيلة النهار ، وكثيرا ما أحدثه عنك ، حتى أصبح شديد الشوق الى أن يرى صورتك . فمتى تنتهين من صنعها وارسالها الى ؟ »

ولم يكن لكاميل — اذ ذاك — من العلم مايساعدها على كتابة جملتين صحيحتين ، فضمنت ردها بضع كلمات عديمة المعنى ، وكأنها تؤدى واجبا مدرسيا . . وأرسل اليها لويس خطابا ثانيا ، عتب عليها فيه اقتضاب ردها ، فلم تعن بالرد عليه سريعا . وانتهى الامر بأن نسيت هذا الواجب ! . . ومنذ ذلك الوقت ، صدم قلب الصبى وانتابه شيء من الالم الحاد لهذا الاهمال والاعراض ، فلم يعد يكتب لها . .

وهكذا أثر الفراق ومرور الايام فى ذلك الحب الذى غرسه لويس فى قلب الفتاة الصغيرة . . ولا ريب أن ذلك القلب لم يكن قد استكمل نضجه ، والا لاحتفظ بعهد الحب الاول القوى . . ولكن كاميل احتفظت بايمانها بجمالها . . الايمان الذى نما منذ بدأ ذلك الحب الصبيانى . فقد راح اعجابها بحسن وجهها وجمال جسمها يزداد يوما بعد يوم ، حتى أنها صارت تقضى الساعات الطوال وهى تنعم النظر فى يديها وبهاء

بشرتها ، أو تمر بأصابعها فى شعرها الذى كانت تجده أشد لمعانا ونعومة من الحرير .. وفى ليالى الصيف ، كانت تنسى نفسها أحيانا — حين تخلع ثيابها وتستلقى فى الفراش — فتنظر الى ساقيها العاريتين حتى الركبتين ، وتطل من طوق قميصها على بدنها العارى تحته ، وتتأمل — بنظرات مدلهة — مفاتن ذلك البدن البض.. الذى كان يتضوع بعبير عاطر أشبه بشذى الازهار الجميلة فى حديقة صغيرة .. وكانت تستنشق ذلك العبير فى نهم ونشوة غريبين ، وقد أخفى شعرها — المنسدل على الوسادة — معالم وجهها .

ولقد فاجأها والدها — عدة مرات — وهى تتأمل صورتها أمام النافذة ، أو تضحك — من كل قلبها — لطيفها المرتسم على صفحة المرآة ، فكان يؤنبها ، ويهددها بقسوة العقاب اذا عادت الى ذلك العمل .. ولكنه كان — اذا فكر فى الامر بعد ذلك — يشعر بالندم على قسوته ، ويعتبر نفسه متجنيا على ابنته .. فأى جرم ترتكب « كاميل » اذا هى أعجبت بنفسها وتغزلت فى جمالها ؟ ! .. انه — هو نفسه — ما كان يحجم عن الاعجاب بذكائه الشخصى ونبوغه ! .. ان كل جنس يعجب بنفسه ، وكما تعجب المرأة بجمالها ، يعجب الرجل بنبوغه .. والطبيعة ذاتها تساعد — اذ تبعث الى قلوب العذارى بالرغبة فى الجمال — على التعجيل بأسباب الحب . لذلك انتهى « جوفر » الى أن يترك للفتاة حريتها حتى فى التزين، وحقها فى الاعجاب بجمالها ما شاء لها الاعجاب .. ولكن « كاميل » كانت تخاف والدها كثيرا ، على الرغم من انه لم يسىء اليها فى أى يوم ، فأخذت تحرص على ألا يفاجئها فى تلك الاوضاع ، وأحست كأن فى جمالها شيئا محرما !

وكانت قد اعتادت أن ترافق الطبيب في غدواته وروحاته في الريف ، فحرصت على أن يراها الناس كثيرا الى جانبه ، وراحت تلاحظ – بانتباه – الاثر الذى تخلفه فى المارة الذين كانوا يقابلونها وهى الى جانب والدها .. ولم تكن تسر لشيء أكثر من سرورها لتلك الكلمات التى كانت تصل الى مسامعها وهما فى الطريق ، اذ يهمس من يمر بها بعد ان يتمعن فى وجهها : « يا للفتاة الجميلة ! » .. أو بالاحرى ، لم تكن تسر لشيء قدر سرورها بذلك الوميض المتألق الذى كانت تلمحه فى عيون الرجال ، حين ينظرون اليها فى الطريق .. أما جوفر فلم يكن يرى شيئا من ذلك ، اذ كان من عادته أن يسير فى الطريق وقد أحنى رأسه مفكرا ، مسلسا قياده لابنته ، فكانت تتعمد أن تمر معه أمام المشارب .. وهناك ، كان الجالسون – من روادها – يكفون عن الحديث ، ليتابعوا الفتاة بنظراتهم ، وقد عقد الاعجاب ألسنتهم .

وكذلك كانت تحرص على السير فى الشارع الرئيسى من المدينة ، وهى تتكىء على ذراع والدها لتقلل من سرعة سيره ، دون أن يفطن !.. وكان من عادة سكان ذلك الشارع أن يجلسوا فى الامسيات أمام أبواب المنازل ، كما كان الباعة يتجمهرون ، وتتعالى نداءاتهم فى الجو .. ولكنهم كانوا جميعا يكفون عن الصياح والجلبة عند مرور الطبيب وابنته .. وكانت « كاميل » تؤوب الى المنزل المنعزل – مع والدها – وهى على يقين بأن جميع سكان الشارع الرئيسى وتجاره يتحدثون عنها معجبين بجمالها !

***

وكان فى المدينة متجر للأقمشة يدعى « لارتيج » ، اكتسب صيتا ذائعا عندما كانت المركبات هى وسيلة النقل بين الريف

والمدن . أما بعد انتشار السكك الحديدية ، فقد خبت شهرة المتجر ، وبدأ يصاب بخسارة مالية ، وان لم يغلق أبوابه ، لاعتزاز صاحبه وزوجته به .. وكانا قد أثريا من تجارتهما فى العهد السابق ، فلم يحفلا بتحمل خسارة بسيطة فى كل شهر . وهكذا ظل المتجر موضعا لاحترام الاهالى وثقتهم . ولم يكن لصاحبه ولد يخلفه . بيد أن العملاء فوجئوا – ذات يوم – بوجه جديد فى « لارتيج » .. وجه صبى لا يتعدى الخامسة عشرة من عمره، تبدوعليه أعراض المرض والضعف . وكان هذا الصبى ابنا لاخ مدام « لارتيج » – زوجة صاحب المتجر – وقد ارسله والداه الى (تونيان) كى يتدرب على التجارة، ومنذ ذلك الوقت، اعتاد الناس أن يروا الصبى واقفا أمام باب المتجر كالتمثال ، وهو يحملق فى الفراغ .. على أن « كاميل » فطنت عدة مرات – وهى تمر فى الشارع – الى أن الصبى كان يكاد يلتهمها بنظراته .. وفى ذات مرة ، خففت من مشيتها ، وثبتت عليه فجأة نظرتها القوية الاثر ، فسرها أن رأت وجهه يتضرج خجلا .. ثم حولت نظرها عنه وتركته حائرا بين حيائه ورغبته !

ولاحظ الجميع أن الصبى قد ازداد ضعفا بعد ذلك، وظهرت هالات زرقاء حول عينيه ، وبدأ يسعل . واستدعى الطبيب « جوفر » لمعالجته ، فأخذ يستجوبه لعله يعرف أسباب مرضه .. وانتهى الامر بأن اعترف الصبى بغرامه ، ولكنه حافظ بكل قوة على اسم « كاميل » فلم يبح به . وأشار الطبيب باعادة الصبى الى والديه ، حتى لا يزداد عذابا بوجوده على مقربة من حبيبة لا أمل له فى الظفر بها .

وسمعت « كاميل » هذه القصة من والدها ، فامتلأ قلبها زهوا وفخرا ، لانها كانت تعرف اسم الفتاة التى أحبها

الصبى ! .. وأخذت تقول لنفسها فى غرور المرأة الساذجة : « لقد اصيب بالمرض لانه يحبنى ! » . ولما نظرت الى المرآة ، أخذت تلتمس العذر للصبى ، وبدأت تضطرب لذلك اللهب الذى يشع من عينيها ، وازدادت بنفسها افتتانا ، حتى لقد كانت تميل الى أن تقترب من المرآة لتقبل شفتى الصورة المنعكسة على صفحتها .. وأخذت - منذ اطمأنت الى قوة فتنتها - تحاول تجربة أثرها فى كل مناسبة ، وكان من عادة الطبيب - اذا جاءه أحد عملائه وقت تناول الطعام - أن يأمر بادخاله الى غرفة المائدة ، ويجلسه بالقرب منه . فأصبحت « كاميل » تتعمد أن تضع ساقا على الاخرى أمام الضيف حتى يقع بصره على جزء من جسمها البض .. ولم تكن تسعد بشىء قدر سعادتها بأن ترى نظرة الضيف - شابا كان أو كهلا - وقد تركزت على ذلك الجزء العارى من جسمها . وكثيرا ما كانت تأتى بحركة أخرى لتكشف له عن جزء آخر من جسمها . . وما كان ذلك كله الا تسلية ساذجة ، اذ ظلت - على الرغم من ذلك - بعيدة عن أى شعور جنسى أو رغبة جامحة ، وكانت تقنع فى حياتها بتذوق مقدار جمالها . وقد قال بلزاك يوما : « تمر فى الحياة فترة يشعر فيها الانسان بالاكتفاء ، فلا يعود راغبا فى أكثر مما يملك ! »

وكانت تميل الى ليالى الصيف ، والى الاشتراك فى المهرجانات الريفية التى كانت تقام على مقربة من (تونيان) ، فيقصدها جميع أهالى المدينة .. وكانت تلح على ابيها فى طلب الذهاب ، وتتفانى فى استذكار دروسها وأداء واجباتها المدرسية حتى يقبل اصطحابها الى تلك المهرجانات ، التى كانت بالنسبة لها بمثابة المسرح الذى تعرض عليه جمالها .. وكان كل شىء فى تلك الاحتفالات والمهرجانات يبعث بالسرور

الى النفس ، فمن الشـــمس المشرقة ـ نهارا ـ الى المناظر الطبيعية الجميلة .. وكانت الفتيات يسرن فى جماعات وهن يختلن فى ملابسهن الحريرية ، فكانت « كاميل » تنظر اليهن فى تعال ، وهى مستندة الى ذراع والـدها ، وتزدهى اذ تلاحظ انها استأثرت بأنظار الجميلات منهن .. كانت تحس ـ اذ ذاك ـ بأنها أميرة رفيعة القدر ، تنظر الى من هن دونها منزلة. وكلما شعرت بالاعجاب نحو فتاة منهن، كانت تخاطب نفسـها قائلة : « هذه الفتاة جميلـة .. ولكنى أجمل منها بكثير ! »

وكانت تقود والدها أمام المشـارب التى تملؤها انغام الموسيقى وتزدحم أمامها جماهير الناس ، وقد تراكمت على وجوههم آثار العرق والتراب ، وهم يتنقلون من مكان الى آخر حتى يصيبهم التعب ، فيجلسـوا على المقاعد العامة المثبتة فى الجدران .. وكانت وجوه الفتيان تبدو شاحبة سمراء ، على العكس من وجوه الفتيات المتوردة ، وعيونهن اللامعة . فكانت كاميل تتمعن فيهم جميعـا ، وهى اشد اهتماما بوجوه الفتيات منها بوجوه الفتيان ! .. وعندما كان المسـاء يرخى سدوله ، كانت تعود مع ابيها الى (تونيان) أما فى العربة ، وأما سـيرا على الاقدام ـ فى أكثر الاحيان ـ فى الطرق الزراعية العـديدة . فكانا يسـبقان غيرهما من العـائدين الذين كانوا يسيرون على مهل ، وقـد أعياهم أن قضوا النهارفى الرقص..وكان القوم يسيرون وقد اتكأت كل واحدة الى ذراع صديقها ، وبدت فى أصوات النساء نبرات خاصة ، وكأنهن تحت تأثير نشوة خفية . ولم يكن « جوفر » يلقى بالا الى تلك الظاهرة ، أما « كاميل » فكانت تراقبها باهتمام ، وتحتفظ بها فى ذاكرتها . ولم تكن تشعر بالحسد

نحو أولئك الفلاحات والرجال يطوقون خصورهن ويطبعون القبلات على شفاههن ، اذ كانت توقن فى قرارة نفسها ، بأن اليوم – الذى تشترك فيه هى الاخرى فى مظاهر ذلك الحب العاطفى القوى – لن يلبث أن يحين ، ولم تكن تشك فى ان المستقبل يحفظ لاجمل النساء أجمل المباهج والمسرات !

ولم تكن لها تسلية غير هذه الحفلات وغير اصطحاب والدها .. وكانت تعيش فى المنزل المنعزل راضية بصحبة « ارما » – الخادمة البلهاء – وان كانت الضحكة الجوفاء التى اعتادت الخادم أن تطلقها ، ذات أثر سيىء كان يثير انفعال الفتاة .. أما الوحدة والعزلة ، فلم تكونا تثيرانها كثيرا ، اذ كانت بطبيعتها محدودة الفكر والمطامع !

***

وعلى الرغم من ذلك ، بدأت تشعر – وهى تكبر يوما بعد يوم – بحاجتها الى رفيق يسليها ، حتى صادفت فتاة تدعى « جان بوريس » ، تصغرها سنا ، وكانت ابنة ثرى من عملاء الطبيب « جوفر » ، وقد اتصفت بالافراط فى الخجل ، وتجلى على وجهها وجسمها آثار ما كانت تلقاه من عناء فى حياتها المنزلية . وأخذت « كاميل » تغمر هذه الفتاة بعطف أشبه بذلك الذى تغمر به الفتيات دماهن الصغيرة . ولم تهتم كاميل كثيرا بشكل صديقتها .. وأخذتا تتقابلان كل يوم ، لعدة أشهر متتالية ، الى أن كان ذات مساء ، اذ جاءت « جان » الى المتنزه العام، فسمعت احدى صديقات والدتها تحدث شخصا آخر ، دون أن تفطن الى وجودها على مرمى السمع منها .. وكانت المرأة تقول فى عجب : « لماذا اتصلت جان هذا الاتصال المتين بالآنسة جوفر ؟ .. كأنى بالاخرى قد اتخذتها نديمة لها ! »

وتألمت جان مما سمعت ، وأحست بجرح فى كبريائها ، فأخذت - منذ ذلك الوقت - تتجنب مقابلة كاميل .. وعجبت هذه لما أصبحت تلقاه من اعراض صديقتها ، وحاولت أن تجدد الصلات ، ولكنها فشلت. حتى اذا أدركها اليأس اخيرا ، كفت عن المحاولة ، وعادت الى استقلالها ..

وكانت « كاميل » قد بلغت السادسة عشرة من عمرها ، فامتنعت عن المرور فى الشارع الرئيسى - وهى تستند الى ذراع والدها الطبيب - وأصبح اهل المدينة لايرونها الا نادرا . وأحست كما لو انها كانت مريضة .. وظلت على تلك الحال أسابيع عديدة ، تبكى لغير ما سبب، وتتعرض لنوبات عصبية فجائية ، وتميل الى الكسل ، الى درجة انها أصبحت تكره الحركة . وكان « جوفر » يراقبها بعناية ويتتبع أطوار المرض باهتمام .. ولكن دون قلق ، فما كانت هذه أول مرة يصادف فيها مثل هذه الحال . وقد عللها بأنها بداية الشعور الجنسى الذى ينتاب كل الفتيات اذا ماوصلن الى سن معينة ، فيثير فى نفوسهن الرغبة فى الحب .

وعندما شفيت « كاميل » ، بدا عليها كأنها أكبر سنا مما كانت قبل المرض ، وشحب وجهها .. وكانت الاسابيع الخمسة كافية لان تمحو عن وجهها آثار الجمال الصبيانى السالف ، لكى ترسم عليه معالم جديدة لجمال هادىء ، وكأنها زهرة كبيرة قد اكتمل تفتح أكمامها .. كذلك تغير صوتها ، فأصبحت له رنة تدل على الثقة والجد ، وأصبحت أقل الامور - مثل نظرة أو كلمة - تسترعى انتباهها .. وبات كل ما اعتادت - فى الماضى - أن تتجاوز عنه فى غير احتفال ، يثير فى نفسها الشعور بالخجل ، ويبعث فى وجهها

حمرة تكشف عما كانت تشعر به من اضطراب فى داخل قلبها النقى .

ولكنها كانت تجد نفسها دائما جميلة ، فاستمرت تعبد جسمها البديع ! .. على انها لم تعد تجرؤ على ان تجرب تأثير جمالها فى الرجال، كما كانت تفعل من قبل . وأصبحت هى التى تضطرب ، وهى التى تخجل ، اذا ما فطنت الى اهتمام الرجال بها .. وبدأت تمتنع عن مرافقة الطبيب فى جولاته ، الا فيما ندر ، فصارت تفضل قضاء أيامها بالمنزل المنعزل ، فى صحبة أفكارها الحائرة المضطربة .. وجال فى خاطرها — وهى تشفق على نفسها — انها لن تخرج قط من وحدتها المثقلة بالهموم ، وان شعلة جمالها ستخمد دون أن يراها أحد .. فليس هناك من يعرفها ، وليس هناك من يحبها .. وأوحى اليها هذا بأنها لن تحظى بالزواج ، فبات هذا الخاطر يبعث بالحزن الى قلبها !

ولكنه — الى جانب الحزن — كان يبعث بشىء من العذوبة والرقة . فقد أخذت تستعرض حياتها الماضية ، وأصبحت تميل الى التفكير فى صديق الماضى .. فى لويس ، الذى سافر دون أن يكون هناك أى أمل فى عودته !.. ترى اين هو الآن ؟ .. بل هل تراه لايزال حيا ؟.. انه ولا بد قد نسيها !.. ومع ذلك فانه أحبها فى الماضى ، على الرغم من صغر سنه .. لكم هى الآن فى حاجة الى من يحبها ! .. ولقد أصبحت تشعر — نحو لويس — بعاطفة قوية ، كانت تثير فى نفسها اضطرابا كلما فطنت اليها .. ان اهمالها التفكير فى تلك الصداقة الصبيانية قد أسدل عليها ستارا من النسيان . وكم أسفت كاميل لما بدا منها فى الماضى من عدم اهتمام أو تقدير لهذا الغرام !.. وما أعظم السرور الذى كانت تتوقع

أن يداخلها لو انها عرفت ان لويس لايزال حيا ، فقد كان فى وسعها — اذ ذاك — ان تقول لنفسها ان هناك فى الحياة من يحبها !

وأخذت تنقب فى أوراقها القديمة ، حتى عثرت على الخطاب الاول الذى أرسلته اليها . واستقرت نظراتها — وهى فريسة الانفعال — على تلك السطور التى كاد مرور الزمن يمحوها ، وفيها يقول لويس : « لقد وجدت صديقا ، يدعى روبير كلاييس ... ونحن لانكاد نفترق طيلة النهار ، وما أكثر ما أحدثه عنك ... »

وتساقطت عبراتها على الخطاب البالى لحظة قصيرة ، اذ تفجرت عاطفة الحب دافقة نحو الحبيب الغائب ، وما درت ان كل ماكانت تشعر به ليس سوى ذلك التأثر الذى يحس به كل شخص عندما يستعيد ذكرى ماضيه ويذكر من اتصل بهم فى الماضى ! .. وأخذت — فى النهاية — تحس بالألم من جراء ذلك الشعور الذى كانت تستسيغه فى بادىء الامر .. وحاولت أن تغير مجرى أفكارها ، فاتجهت نحو القراءة ، ذلك الغذاء الصناعى الذى أعد لخداع قلوب الاناث وعواطفهن .. وأخذت تنقب فى مكتبة والدها ، دون أن تبحث عن كتاب معين .. وكانت تتضايق من الكتب الجدية ، أما الخيالية فكانت — الى جانب انها كتبت بلغة لم تألف سماعها — تكشف عن نوع من الحب لم تكن كاميل تستسيغه البتة ، اذ أنها لم تكن قط من أولئك الفتيات المغرمات بالمغامرة .. كانت قد خلقت للزواج ، فلا يرضيها شىء غيره .. وكان تأخره كفيلا بأن يذبلها ويقضى عليها .. مثل الارض التى لا تأخذ نصيبها من ماء الرى . وكانت تحس فى غمار أحزانها بذلك الحقد الذى ينتاب قلوب العذارى وهن يبكين أسى اذا ما تأخرت الفرصة التى تتيح لهن أداء وظيفتهن الطبيعية فى الحياة !

وكان والدها « جوفر » يدرك كل ذلك ، وقد راقب كل ما انتابها من تطورات مختلفة بعين الفيلسوف وعين الأب .. كان يراقب عينيها الناعستين فيقرأ فيهما كل ما يتعلق بالشعور الجنسى .. وكان شعوره وهو يدرك ماينتاب ابنته شعورا غريبا ، فقد كانت « كاميل » المتألمة المضطربة أحب لديه وأعز ألف مرة من تلك الفتاة الجميلة الصغيرة التى عرفها فى الماضى .. وأدرك ان الوقت قد أزف لتزويجها ، ولكن الظروف كانت سيئة معاكسة ! .. فلقد تعرضت (تونيان) — فى ذلك العهد — لكثير من المحن : فمن فيضان الانهار ، ومن نكبات ، ومن ضعف المحصول ، حتى عم الفقر أهلها ، واضطر أكثر سكانها الى ان يهجروها ، وبات لزاما على كل فرد بقى فيها ، ان يقتصد فى الانفاق قدر الامكان .. وأصبح المنظر الخارجى للقصور الفخمة ، أبعد ما يكون عن حقيقة ماكان يشعر به أهلها من العسر ، وما صار عليه أثاثها من البلى حتى استحق أن يستبدل بغيره .. وأصبح عملاء الطبيب — وكلهم من ملاك الاراضى الذين عانوا من الفاقة أكثر من غيرهم — يضنون بأجر الطبيب ولاينتظمون فى الدفع ..

ومن ناحية أخرى ، قل ايراد الارض التى كان الطبيب يمتلكها فى مدينة (ماو) ، وكانت هذه الأرض جزءا من الصداق الذى اعده «جوفر» لابنته .. وبعد ان كانت قيمتها تقدر بثلاثين الفا من الفرنكات ، اذا بها تهبط الى ثمانية عشر ألفا .. وما كان مثل هذا المبلغ ليغرى الشبان القلائل الذين كانوا يفكرون فى الزواج من أهل المدينة .. اذ كان هؤلاء الشبان يفكرون فى الزواج وهم يحلمون بأن ينالهم من ورائه شيء من الثراء ، ليرفع من قيمة أملاكهم ، ويساعدهم على

اصلاح أراضيهم الزراعية التى كادت تصبح عديمة القيمة !
.. وفوق ذلك ، كان هناك شيء يجهله الطبيب « جان جاك جوفر » ، ذلك هو ان جمـــال ابنته الرائع كان يزعج اهل المدينة ، بقدر ماكان يزعجهم التعليم الغريب الذى تلقته .
وكان الطبيب ــ من جانبه ــ يعلل عدم تقدم أحد لطلب يد ابنته ، بعدم ترددهما ــ هو وهى ــ على الكنيسة ، فكان يقول فى نفسه : « ان الزواج بفتاة جميلة لا دين لها ، ينطوى على مغامرة خطيرة لا يجسر أحد على القيام بها ! . »

وهكذا بدا كما لو أن «كاميل» قد حكم عليها بعدم الزواج الى الابد ، مالم يحدث ماليس فى الحسبان .. وقد أدركت هى ذلك ، وقنعت بأن تظل وحيدة تزهو بجمالها ، وتتحسر على اهمالها الشخص الذى أحبها . .بل لقد صممت على ألا تستثير ــ بعد اليوم ــ تلك الذكريات الباسمة الماضية ، وذلك المـــاضى المضيء الذى أخذ يختفى عن عينيها بسرعة البرق ، فمـــا كان من وراء تذكره ســـوى اظهار حياتها الحاضرة أشد سوءا وشقاء مما هى .

وما لبثت أن اصبحت توقن من ان لويس لم يحبها حقـــا فى الماضى ، مادام لم يعد اليها على الرغم من وعوده .. ولم يداخلها ريب فى أن الزمن قد أسدل ستار النسيان على قلب الصبى ، كما كان قد أوشك ان يطمس تلك الاســـماء التى نقشت على الاشجار فى « الغابة العذراء » ، بعد أن أخـذت تنمو عليها طبقة جديدة جعلت قراءتها وتتبع خطوطها أمرا متعذرا !

القسم الثانى

- ١ -

وبدأت « كاميل » تعشق تلك الحياة الهادئة الصامتة ، وذلك السكون الذى كان يشمل المنزل المنعزل . وكم قضت من أيام كانت لا تنبس فيها ببنت شفة . وكانت ـ اذا سافر الطبيب جوفر لعيادة مريض فى مدينة بعيدة ـ تخرج الى الشرفة ، وتجلس هناك مسرحة بصرها فى الفضاء ، لا تكاد تفكر فى شىء ، وقد راقت لها تلك الوحدة واستمرأت فيها سعادة مجهولة ليس من السهل التعبير عنها .

كان الهدوء يسود المنزل ، فما كان يتردد فيه غير صرخة « ارما » ـ الخادم البلهاء ـ تنبعث بين وقت وآخر ، وهى تتمشى بين أشجار الحديقة ، أو تطل من احدى النوافذ .. ولقد مالت « مدموازيل جوفر » الى الوحدة والسكون ، حتى أصبحت تكره رنين جرس الباب مؤذنا بحضور أحد عملاء والدها الطبيب ، فقد كان هذا يجشمها عناء محادثة القادم واستقباله .. وهكذا الوحدة ، يخشاها المرء فى بادىء الامر ، ولكنها لا تلبث أن تستولى على النفس ، فلا يكاد الانسان بعد ذلك يملها أو يميل الى غيرها !

وفى ذات يوم ، قال الطبيب « جان جاك » يخاطب ابنته : « هل بلغك أن بعض الجيران الجدد سيسكنون بجانبنا ، يا كاميل ؟ » .. وأجفلت الفتاة ، وكأنها سمعت خبرا مزعجا ، وسألت والدها : « أى جيران ؟ .. ومن هم ؟ »

ـ انها أسرة الكاهن الجديد الذى سيخلف كاهن المدينة مدة مرضه .. هل يضايقك هذا الامر ؟

ولم تجب، وانما أخذت تفكر وعلامات الامتعاض على وجهها .. وكان «جوفر» يراقبها ويقرأ أفكارها ، فتمتم قائلا لنفسه: «الواقع انني أنا الآخر سأضيق بوجود بعض الاحياء الى جانبنا، فى هذا المكان الهادىء ! » .. وأخذ يستعيد ذكريات الماضى ، حين كان يقضى أكثر أوقاته وهو يطالع فى مكتبة الكاهن — فى المنزل المجاور لمنزله — فلا يكاد يشعر بمرور الزمن .

وفى صباح اليوم التالى ، نزلت « كاميل » الى الحديقة — بعد أن تناولت طعامها — فأزعجها أن سمعت صوت غناء العمال ، وضجيج آلاتهم المختلفة ، وهم يعملون بجد واجتهاد فى اصلاح المنزل المجاور واعداده للسكنى . وشاهدت فى نفس اليوم ماقاموا به من أعمال لتمهيد الدروب بالغابة العذراء المتكاثفة الاشجار .. فما هى الا ساعات قليلة، حتى كانت الغابة المتكاثفة قد ظهرت للعيان واضحة جلية . وما أن رأتها الفتاة على تلك الحال، حتى أسرعت الى المنزل المنعزل وقد امتلأت عيناها بالدموع ، فقد خيل اليها ان تلك البقعة الفريدة المجهولة ، التى شهدت حلقة لا تنساها من حلقات صباها ، قد تدنست وانتهكت حرمتها .

وبعد بضعة أيام ، لم يبق من أثر للغابة العذراء — كما عرفتها كاميل وارتادتها مع لويس — اذ تحولت الى حديقة صغيرة من الطراز الحديث ، تشتغل فيها بعد ظهر كل يوم « مدام هوك » وبناتها الثلاث ، مارت وبرت ومارى .. وكانت الفتيات على درجة محدودة من الجمال . أما أمهن ، فان مظهرها لم يكن يوحى بأنها تزيد عنهن سنا ، حتى أن الكاهن — وكان رجلا لطيفا لا يكره الدعابة — كان يقول عنهن ، كلما ذكرهن : « زوجاتى الاربع » !

وما ان رأت كاميل وجوه النساء الاربع فى الحديقة ، حتى

امتنعت عن النزول اليهـا ، ولزمت المنزل المنعزل ، وهى غضبى تشعر بحقد ضـد هؤلاء اللائى اجترأن على ازعاج وحدتها المحبوبة . ولكنها خرجت ـ بعد ذلك ـ الى الشرفة بجانب والدها ، فلاحظت أن الاناث الاربع ينظـرن اليهـا باهتمام .. والواقع ان جمـالها غير المألوف ـ الذى ورث الطابع الايطالى عن جمـال أمهـا ـ بهـر أعينهن ، وجعلهن تواقات الى التعرف بهذه الايطالية الباهرة الحسن ، ذات الشعر الفـاحم المنسـدل على كتفيهـا البـديعتين . لكن الشقيقـات الثـلاث ـ مارت وبرت ومارى ـ لم يفلحن فى تبادل الابتسام مع كاميل .. والابتسام هو رسول الصداقة بين النسـاء ! .. فقد ظلت « كاميل » مدة لا تأبه بهن ، ولا تهتم لابتساماتهن ، بل كانت تظهر لهن الصد والاعراض !..

الى أن اضطرت « مدام هوك » ـ يوما ـ الى أن ترسل فى طلب الطبيب جوفر لاستشارته ، وقـد ألم بها مرض ، أو تظاهرت بذلك . وعند ما ذهب الطبيب لعيادتها ، سألته أن يصطحب ابنته فى زيارته التالية ، فبادر الى الموافقة ، اذ وجد فى جيرانه الجدد سلوى لوحدة كاميل ، فضلا عن انه كان قد مال الى الكاهن ، بعد أن تبادل معه بضع كلمات فى موضوعات فلسفية ، وهى الموضوعات التى يميل اليها دائما .

وبدأت العلاقات بين الاسرتين منـذ ذلك الوقت ـ أسرة الطبيب جوفر من ناحية ، وأسرة الكاهن من ناحية أخرى ـ على الرغم مما لاقت « مدام هوك » وبناتها الثلاث من الصد والاعراض من جانب « كاميل » فى بادىء الامر . ولكن الفتاة لم تلبث ان مالت اليهن والى حديثهن ، فزالت الكلفة بينها وبينهن ، وأخذن يتبادلن الحـديث كل يوم .. واعتـادت الفتيات أن يجتزن الحاجز الفاصل بين الحديقتين ، لزيارة

كاميل ، كما أصبحت هـذه تذهب اليهن . وهكذا توطدت بينهن الصداقة النسوية ، وهى تختلف عن صداقة الرجال ، فى اهتمامها بكل شيء : من اللهو الى العمل ، ومن أتفـه الفكاهات الى أدق فنون التطريز . وبدأت كاميل ترتاح الى تلك الصداقة الجديدة بقدر ماكانت تستسيغ الوحدة فى الماضى ، اذ كانت — كلما جلست بين الأم وفتياتها الثلاث — شعرت بالزهو والفخر وهن يتحدثن عن جمال جسمها ، ويسرفن فى اطرائه . وكانت الفتيات الثلاث يظهرن لها اخلاصا عظيما ، كما كانت أمهن لا تكف عن التفرس فيهـا ، وهى تهتف : « يالله ! لكم أنت جميلة يا ابنتى ! .. ان جمالك يفوق الحد المعتاد .. ومع أن فتياتى على شيء من الجمال ، الا أنهن يظهرن دميمات اذا جلسن الى جانبك ! »

واعتادت الفتيات الثلاث — مارت وبرت ومارى — ان يلعبن مع « كاميل » ، كما يلعبن بدمية كبيرة صنعها مثال بارع وقدمها اليهن .. ووجدنها تجهل الكثير مما تهتم به معظم النساء ، ولكنها لم تكن سقيمة الفهم أبدا ، وكثيرا ما كانت تذكر أشياء صحيحة بلغتها البسيطة الطبيعية غير المتكلفة . واذ ذاك كن يحطن بها — وهن يضحكن اعجابا بحديثها — وتحاول كل منهن تقبيلها .. ورأت الام وبناتها أنه مما لايناسب جمال « كاميل » أن يظل شعرها منسدلا على كتفيها ، فقررن فيما بينهن أن من اللائق رفعه معقوصا الى رأسها ، كما كن يفعلن ، اذ كان هذا أدعى الى اظهار محاسن وجهها ، فتركتهن « كاميل » يفعلن بها ما يروق لهن ، وهى مسرورة ، وقد ازدادت تيها وعجبا بنفسها .. وما لبثن — بعد ذلك — أن أخذن يحثثنها على مرافقتهن الى الكنيسة ، التى لم تكن قد دخلتها منذ وفاة جدتها ، والدة الطبيب .. وعادت الفتاة الى الكنيسة

دون اهتمام ، فما كانت تأبه للدين . وكان والدها يعرف ذلك فيها، فترك الجارات الاربع يتصرفن معها كما كن يرتأين، وقد أرضاه أن تعود علامات البشر والسرور الى وجه ابنته، وداخله الامل فى أن تجد لها « مدام هوك » زوجا ، لما كان لها من معارف واتصالات .

***

وحدت الصلة تتوطد بين الطبيب والكاهن ، اذ وجد الاول فى الثانى زميلا عالما ، يتفق معه فى كثير من آرائه .. وكثيرا ما قضى الطبيب ساعات متوالية ، يتحدث مع الكاهن وهما جالسان فى ركن من شرفة المنزل المنعزل يدخنان ، بينما كانت مدام هوك وفتياتها يجلسن مع « كاميل » فى جانب آخر ، يتبادلن حديثا يتخلله الكثير من القبلات والضحك والعبث .. وكانوا ــ فى بعض الاحيان ــ يخرجون جميعا الى المتنزه العام ، فكانت « مارت » و « كاميل » تجلسان بجانب مدام هوك على أحد المقاعد ــ وكانت مارت أكبر الفتيات سنا ــ بينما كانت برت ومارى تجوسان خلال الحديقة ، مفتبطتين لملاحقة بعض الشبان لخطواتهما ، ثم تعودان الى مقعد مدام هوك .

ولكن كاميل لم تكن لتقنع بأن تجد لنفسها بعض الصديقات اللاتى يظهرن اعجابهن بجمالها أو يغمرنها بعطفهن ، بل كان كل همها متجها الى البحث عن وسيلة ترضى بها رغبات قلبها فى الحياة .. وتمثلت هذه الوسيلة فى طرق موضوع واحد للحديث ، تهتم به كل امرأة .. ذلك الموضوع هو : « الحب » . فكن كثيرا مايتحدثن عن الحب .. الحب الشرعى الذى يعترف به القانون وتقره الكنيسة .. وكثيرا

ما تحدثن عن الخطوبة، والامومة ، والزواج . وكانت «مدام هوك » تروى قصة حياتها ، وزواجها ، وحبها ! .. تلك القصة إلتى ماكان لها أن تنتهى طالما بقيت هى وزوجها على قيد الحياة ! .. ولقد سمعت كاميل مرارا صوت الكاهن وهو يقبل زوجته قبلات رنانة ، وراء الباب .. بل انها رأتهما ــ فى ليال متعددة ــ والهواء يهب عليلا من الحديقة ، وكل منهما يبحث عن يد الآخر ، فاذا وجدها أمسك بها فى يده وأخذ يضغط عليها فى عطف وحب !

وبين هذين الوالدين نشأت بناتهن الثلاث .. فألفت مارت وبرت ومارى ــ من صغرهن ــ الحديث عن قداسة الحب الزوجى ، وعن مهمة المرأة فى الحياة وكيف أرسلها الله لتكون شمس سعادة تضىء المنازل .. فنشأن على التطلع الى الزواج بدافع من الدين وبدافع من الغريزة النسوية على السواء ، وبدرجة واحدة .. ولم يكن الزواج بعيدا على « مارت » ، اذ وعدها أحد طلاب الدين فى مدينة (باليف) بالزواج ، عندما كان فى ضيافة الكاهن « هوك » لبضعة أيام .. وكان اسم هذا الشاب « بول دلكومب » . وقد وافق الأب على أن يتم هذا الزواج بعد أن يصبح « دلكومب » كاهنا بزمن قصير ، وقد راوده الامل فى أن تعيش ابنته مع زوجها فى (تونيان) ، اذ كان كاهن المدينة فى صحة لم تعد تساعده على القيام بأعباء الكنيسة .

واعتادت «مارت» أن تحدث كاميل عن « بول دلكومب » ، وتقص عليها كيف أحبته لاتفاق مشاربهما فى كثير من النواحى . وأخبرتها انهما ظلا فترة يكتمان كل شىء فى قلبيهما ، الى أن اعترف كل منهما للآخر على الرغم منه ، أثناء انفرادهما فى الحديقة .. بل انها وصفت لها القبلة

الاولى التى طبعها الشاب على جبينها، وكيف أنهما أسرعا ـ بعد ذلك ـ الى «مدام هوك» يقصان عليها كل شيء .. آه ! يا لتلك اللحظات السعيدة !.. وأخذت مارت تحاول أن تصف الشاب لكاميل، فذكرت عنه أنه جميل الشكل، أبيض الوجه، جم اللطف، يكاد يكون أصلح انسان للقيام بوظيفة الكاهن ! .. بل انها راحت تحاول أن تصف لكاميل فصاحته وقوة بيانه وتأثيره على الجماهير اذا وقف واعظا بينهم ! .. وكانت تشرك « كاميل » فى أحلامها بالمستقبل الزاهر الذى ينتظر خطيبها .. قد يكون مستقبله فى عالم السياسة باهرا !.. ولم لا يكون مستقبله باهرا فى عالم السياسة ، بعد أن يصبح الكاهن الفذ البليغ ، مادام البرلمان يضم خمسة أو ستة من الكهنة ؟ !

وفى مناسبات أخرى ، كانت مارت تطلع كاميل على الخطابات التى تتلقاها من خطيبها ، فاذا بها جميلة الخط ، تتألف من عبارات صريحة المعنى ، تتخللها كثير من آيات الانجيل ، وتنضح بالحب البرىء، الذى ينم عن رغبة الرجل فى المحافظة على طهارة الفتاة التى ستكون زوجته فى المستقبل .. فكانت « كاميل » تسرع الى غرفتها ، لتخفى العبرات ـ التى تطفر من عينيها ـ عن صديقتها « مارت » ، وتروح تتطلع الى المرآة وهى تقول لنفسها : « كم أنا جميلة ! .. اننى أجمل من مارت بكل تأكيد ، ومع ذلك فليس هناك من يحبنى ! » .. وكانت تراودها خواطر شريرة أحيانا، فتقول لنفسها : « لابد من أن أسرق بول دلكومب من مارت عند حضوره الى تونيان قرب نهاية الصيف ! »

ولكن حدث ـ عند ما حان ذلك الوقت ـ ماحول مجرى أفكارها وغيرها تغييرا كليا .. ففى أحد أيام الاحد ، بينما كانت مدام هوك عائدة بصحبة الفتيات من الكنيسة ـ خلال

الطرق الملأى بالاتربة ــ اذا بها تجذب « كاميل » من ذراعها، وتبتعد بها عن الجميع لتقول لها : « نبئينى يا جميلتى .. ألم تلاحظى شيئا فى الكنيسة منذ أسابيع ؟ » . فارتبكت كاميل ، وأجابت بالنفى . واذ ذاك قالت زوجة الكاهن : « حسنا ، لقد أدركت أن كل شىء قد غاب عنك .. انه شاب مرغوب جدا ! »

واضطربت الفتاة اضطرابا خفيفا ، بينما تابعت المرأة حديثها :

ــ آه ، مرغوب جدا ! .. وقد تحريت عنه ، فاذا به غنى، وله قصر يحمل اسمه ، بالقرب من (كليراك) .. انه يدعى « روكبيكيه » ، ولا بد أنك تعرفينه مادمت قد نشأت فى هذه المنطقة ، فان والدته تملك الملايين .. وهو يعبدك فوق ذلك !

فسألتها كاميل : « وكيف عرفت هذا ؟ »

ــ كيف ؟ ! .. انه يكاد يلتهمك بنظراته .. لقد حضر الى هنا ليزور أقاربه فرآك ، وما لبث أن أحبك من النظرة الاولى ، وأخذ يواظب على الحضور الى الكنيسة برغم انه لم يعتد التردد عليها قبل ذلك .. وتلك النظرات التى يوجهها اليك ! .. آه ياصغيرتى المسكينة ، لكم يبدو وكأنه يود أن يفوز بك بسرعة ! .. أفلا يهمك ذلك ؟

وأطرقت « كاميل » ولم تجب ، فالواقع انها لم تكن تشعر بميل قوى نحو « روكبيكيه » ، أو « السيد » ، كماكان أهل المقاطعة يلقبونه ، لانتسابه الى أسرة نبيلة .

***

وكان « السيد » فى الخامسة والعشرين من عمره .. والحق انه لم يكن يتفق كثيرا مع الفكرة التى كونتها «كاميل»

عن الزوج أو الحبيب ، فقد كانت تحلم برجل مليح الشكل كوالدها ، كثير النباهة ، أنيق الملبس ، فى امكانه أن يكتب لها خطابات غرامية مثل التى كان « بول دلكومب » يكتبها لخطيبته .. أما « روكبيكيه » فكان قصير القامة ، ممتلىء الجسم ، لا يرتدى غير الملابس القروية الأنيقة ، ولم يتجاوز عقله وذكاؤه أنه رسب فى امتحان شهادة الدراسة الثانوية خمس مرات ! .. وكان سيىء السمعة بين الامهات والاسر ، اذ اشتهر بملاحقة الفتيات ، ولقى فى ذلك بعض النجاح بسبب اسمه ومركزه ، وبالنظر الى طيش الفتيات فى القرى ، وميلهن الى المغامرة .

وما كان كل ذلك مما يشجع على اغراء كاميل ، فراحت « مدام هوك » تردد على مسامعها — فى كل لحظة — أن « روكبيكيه » يكاد يجن غراما بها .. بيد أنها ظلت على نفورها منه ، لولا أن الفتاتين « مارت » و « مارى » أخذتا تسفهان اعراضها عن زوج يكاد يكون سيد المقاطعة كلها . أما « برت » فكانت فى ريب من عواطف « روكبيكيه » .. فهل كان مغرما بكاميل الى ذلك الحد حقا ؟ .. وكيف يمكن التأكد من ذلك ؟ .. واذا بهذه الاسئلة تزيد اهتمام كاميل بالرجل ، حتى انها أخذت توجه نظراتها الى ذلك المسكين من حين لآخر ، كلما ذهب الى الكنيسة فى يوم الاحد !

والواقع ان مدام هوك كانت محقة فيما قالت ، فقد كان « السيد » متأثرا بحسن « مدموازيل جوفر » ، اذ كانت تفوق كل فتيات (تونيان) جمالا ، وما عرف يوما — على كثرة عشيقاته — من كانت تدانيها بهاء وفتنة .. وأخذ يطيل النظر اليها منذ رآها للمرة الاولى ، وراح يجمع المعلومات عنها فى المدينة ، فعلم بحياة العزلة التى تحياها .. وأخذ

شـوقه اليها يزداد ، كلمـا تكاثرت العراقيل فى طريقه .
وأصبحت صـورة الحسناء لا تفارق ذهنـه ، وكأنه يحس
بنفس الشعور الذى أثارته فيه حين وقع عليها نظره لاول
مرة ، ومضى الاعجاب بكاميل ينمو فى قلبه ، فأطال اقامته فى
(تونيان) ، وطاب له المقام فى منزل والدته الواسع، القريب
من الكنيسة ، بالرغم من ان الاسرة لم تكن تقيم فيه ، ولم
يكن يضم غير بعض الخدم الذين وكل اليهم أمر العناية به
.. ومن نوافذ ذلك المنزل ، كان يطل ــ أحيـانا ــ فيرى
كاميل وهى تجتاز الشارع الرئيسى ، فى طريقها الى المتنزه
العام أو السوق ...

وكان أهل (تونيان) ينقسمون ــ اذ ذاك ــ الى حزبين :
الحزب الجمهورى ، والحزب المعارض . وكان «روكبيكيه»
ــ مذ غادر المدرسة ــ قد انضم الى الحزب الاخير ، الذى
لم يكن يضم الا بعض الشيوخ . ولم يكن للعبث سن يقف
عندها فى (تونيان) ، فما كان الشـعر الابيض على رؤوس
زملاء « روكبيكيه » ليقلل من ظرفهم واستطابتهم صحبـة
الشباب .. وكان أكثر أصدقاء « روكبيكيه » ملازمة له ــ
من بينهم ــ « بوريس » ، و « دسبيرو » مسجل العقود ،
و « اسكادافال » تاجر الرخام .. فكان الشـاب يجلس
معهم فى شرفة أحد المشارب ، حيث يشربون ، ويلعبون ،
ويلاحقون الفتيات بأنظارهم فى الطريق ، من وقت لآخر ..
أما « بوريس » فـكان هائل الجسم ، بعكس « دسبيرو »
الذى كان ضئيل الجسم ، قليل الـكلام ، كثير الدهاء ..
بينما كان « اسكادافال » رجلا طيب القلب .. وكان ثلاثتهم
ممن تقدمت بهم السن ، فكان « روكبيكيه » هو الشـاب
الوحيد بينهم . واعتاد ــ اذا ماجلس بينهم ــ ان يقص عليهم

مغامراته وغرامياته وأخبار نسائه ، فيستمعون اليه فى سكون ، وقد ظهر التأثر على وجوههم ، وكأنهم يتحسرون على أيام شبابهم الماضية ! .. وكانوا اذا رأوه مقبلا عليهم ، هللوا له ، وصاح به « بوريس » وهو لايزال بعيدا عنهم :

ـ هيه أيها السيد .. كم بلغ عدد مغامراتك الليلة ؟

وما يكاد « روكبيكيه » يجلس ، حتى يبدأ فى سرد غرامياته .. على انه ـ مذ رأى كاميل ـ اعتاد أن يقول :

ـ لقد وقعت وانتهى الامر ! .. يجب أن أحصل على تلك الفتاة .. يجب !

فيقول بوريس : « لكن ياعزيزى .. اذا كنت تحبها فتزوجها ! »

ويبدأ اسكادافال فى الكلام ، فلا يميز الثلاثة من كلامه غير كلمتين أو ثلاث : « بكل تأكيد .. تزوجها ! »

ـ أتزوجها ؟ ! أتهزل فى حديثك ؟ ! .. أتزوجها ؟ ! .. كيف تتصور حال والدتى وأنا أقدم اليها هذه الطبيبة الصغيرة ؟ !

كذا كان « السيد » يتحدث فى النادى ، على مسمع من أصدقائه ، بين سحب الدخان المتكاثف ، وبين الاصوات المختلفة ، كما لو كان يتناسى ـ اذ ذاك ـ انه قبل لحظات كان واقفا بالقرب من نافذته ، يترقب مرور كاميل فى الطريق .. وكأنه كان يتجاهل دقات قلبه وسرعتها عند ما كان يلمح رداء الفتاة عن بعد .

ويبدأ الناس فى الانصراف من النادى وهم يحيون « السيد » .. ويرحل أصدقاؤه واحدا اثر الآخر ، حتى يجد نفسه وحيدا ـ فى نهاية الأمر ـ فيتأمل ما حوله ، وتسترعى نظره قذارة المكان الى درجة تثير تقززه ، فيخرج مسرعا ، ويجتاز

الميدان ميمما ناحية الحديقة التى يتصاعد اريج أزهارها الجميلة فى جو الليل .. ولا يلبث أن يتجه صوب النهر ، فيجلس تحت الجسر يراقب الماء وهو ينساب بهدوء . وكان سكون الليل وما يتخلله من خرير يهفو بالاعصاب ، وتلك الطبيعة الجميلة التى يتسم بها الريف ، ترهف أحاسيس فؤاده، فيشعر بالندم لتلك الكلمات القاسية ـ التى ذكرها فى المشرب منذ لحظات ـ عن الفتاة التى أسرت قلبه .

***

وفى ذات ليلة ، تربع فيها القمر فى كبد السماء ، بلغ بروكبيكيه التأثر أقصاه ، وهو فى جلسته تلك ، فهتف محدثا نفسه بصوت شق سكون الليل : « لأكونن جبانا اذا لم أتزوجها ، مادمت أشعر برغبة فى الزواج منها ! » .. ونهض فانطلق حتى بلغ منزل الطبيب « جوفر » ، فوقف أمام بابه يتطلع الى نوافذه .. ولمح بصيصا من نور ينبعث من احدى الغرف .. واذ كان يجهل ان كاميل تبكر بالنوم، فقد راح يرسل قبلات فى الهواء ، الى تلك الغرفة التى جلس الدكتور « جوفر » وراء جدرانها يطالع كتابا فلسفيا !

ثم عاد الى منزله ليحاول النوم ، ولكنه ظل ساعات مسهدا ، يتقلب فى فراشه . اذ ذاك شعر بالثورة ضد كاميل وضد نفسه ، خشية ألا يكون من وراء هذه الانفعالات التى انتابته الا ما يتلف صحته . وأحس برضاء لانه لم يتقدم خطوة الى الامام فى مشروع زواجه .. فقد كان من الكفاية أن يرى « كاميل » يوم الاحد فى الكنيسة، وأن يلمحها مصادفة ، فى أيام الاسبوع الاخرى ـ فى الطريق أو فى المتنزه وهى تسير مع صديقاتها الاربع : مدام هوك وبناتها . وكلما

ذهب الى النادى وابتدره بوريس متسائلا : « هيه ؟ . .ألم يحدث تقدم فى غرامك ؟.. هل تحدثت اليها ؟ » .. أصبح يهز رأسه قائلا : « آه لو تمكنت من محادثتها فقط ! .. لو ان هذا تم ، لتيسر الوصول الى قلبها ، فهى تكثر من النظر الى .. لابد أن تكون لعوبا ! »

وكان أصدقاؤه يقرون رأيه ، ويزيد أحدهم قائلا :

ـ هذا حقيقى .. لا بد أن تكون الفتاة شيطانا صغيرا !

وما لبثت الفرصة التى كان يتمناها أن وافته ، بفضل « مدام هوك » . فبينما كان «روكبيكيه» يتناول طعام الافطار وحده ـ ذات صباح ـ اذ دخلت عليه مدام هوك ، وقالت له ببساطة : « سيدى ، أعرف انك غنى ، ونحن فى حاجة الى النقود لمساعدة الفقراء ، ولذا جئت أسألك أن تتبرع لهم بشىء ! » .. ولم يكن « روكبيكيه » يكره شيئاقدر كراهيته للتبرع لمشروعات البر . ولكنه فى تلك المرة فكر فى اكتساب ود مدام هوك ، فبواسطتها يمكنه الوصول الى كاميل . لذلك أسرع فأسلمها مبلغا من المال .. وجلست هنيهة تتحدث اليه عن بعض أقاربه الذين كانت تعرفهم ، فراح يستدرجها فى الحديث حتى قالت :

ـ ان لدى ثلاث فتيات يملن الى المجتمعات ، ولا يخفن من الشبان ، فهل لك أن تتفضل بزيارتنا ؟

ولم يجسر على الذهاب اليها غداة ذلك اليوم ، على الرغم من رغبته فى ذلك . ولكنه ذهب ـ بعد يومين ـ لزيارة « مدام هوك » ، حوالى الساعة الثانية بعد الظهر ، وقد ارتدى أجمل ملابسه . وما لبثت « مارت » أن أقبلت ، ففتحت له الباب . وما رأته حتى ابتسمت له ، ومدت اليه يدها تصافحه دون كلفة . وكم اضطرب الشاب المسكين

عندما أحاطت به « مدام هوك » وبناتها الثلاث ، ومعهن كاميل التى راحت تحدق فى وجهه فتزيده ارتباكا .. على ان ذلك الارتباك كان ذا نفع له . فلو أنه بدا أمامهن بالصورة التى كان يبدو بها فى النادى أمام الجميع ، لما وافقت « كاميل » البتة على رؤيته ثانية . ولكنها تأثرت لما رأته من ارتباكه واضطرابه تحت تأثير نظرتها ، كما هفا بمشاعرها أن هناك رجلا يريدها ويرغب فيها الى درجة عظيمة ، فأبدت له ذلك العطف الذى تحتفظ به كل فتاة للمعجب الاول بها .. عطف يخلقه شىء من الاعتراف بالجميل ، وقليل من الحرارة العاطفية ، وكثير من الرغبة فى الزواج والامومة !

وواصل « روكبيكيه » زياراته ، بين آن وآخر ، ثم لم تلبث هذه الزيارات ان أصبحت يومية . وكانت به نزعة عبث ومرح لا تكرهها الفتيات ، على أن خوفه من ان لا يروق لدى « كاميل » جعله يحرص على أن لا يتجاوز حدود اللياقة .. كذلك أخذ يرافقهن فى نزهاتهن .. فاذا ما انصرف الكاهن والطبيب الى أعمالهما ، خرج « روكبيكيه » مع الاناث الخمس ، وظهر بينهن كما يظهر الديك بين دجاجات تباينت ألوان ريشها ! .. وكانت زوجة الكاهن قد أسرت بخلتها الى الدكتور « جوفر » ، وصارحته بأملها فى تحقيق الزواج ، فلم يجرؤ « جوفر » على الاعتراض .. ذلك لانه — وان لم يكن عظيم الثقة فى خطط مدام هوك — كان يعرف أنها أكثر خبرة منه فى مسائل الزواج . ولم يكن له من هم سوى زواج كاميل !

والواقع أن الطبيب لم يرض عن الشاب ، لاول وهلة .. ولكنه راح يعلل نفسه : اذا كان شكله قبيحا ، فالثياب الانيقة كفيلة باصلاح منظره .. واذا كان ضحل العقل، فان

« كاميل » لم تكن مفرطة الذكاء، ولن يضيرها كثيرا ان يكون زوجها دونها فى المستوى الفكرى .. ولكن ، هل كان « السيد » صادقا فى رغبته فى الزواج حقا ؟ .. هذا هو السؤال الذى أقلق بال « جوفر » . فلقد شعر بصدق عاطفة الشاب ، ولكنه كان يرتاب فى ثباته على رأيه، ويوجس من أن ينصاع لرأى أمه اذا هى ابدت عدم موافقتها على ذلك الزواج . لذلك سر « جوفر » لان ابنته كاميل لم تكن شديدة الاعجاب بالشاب ، فقد طمأنه ذلك الى ان انقطاع الصلة بينهما — اذا قدر لها أن تنقطع — لن يسبب لها حزنا عظيما !

***

وكانت الشهور تمر أثناء ذلك .. وقد جاء « بول دلكومب » ثم سافر . ثم رحلت أسرة « هوك » — فى آخر شهر أغسطس — لتقضى شهر فى مدينة (أراشون) .. وشعرت كاميل أن مدة الشهر طويلة جدا .. وأخذ « روكبيكيه » يتردد على المنزل المنعزل لزيارتها ، فكان « جوفر » يتركهما يتحادثان دون أن يشغل نفسه بمراقبتهما . وكثيرا ما نام فى مقعده دون أن يشعرا به . ففى كثير من تلك الاوقات كان الاثنان فى خلوة وحرية أشبه بخلوة الازواج ، لا يزعجهما وجود الطبيب النائم و « ارما » البلهاء . ولكن تلك الحرية كانت تزيد « السيد » اضطرابا ، كما كانت تطيل فترات الصمت والتفكير خلال محادثاتهما !

وشعرت كاميل — وان لم تصارح نفسها — بالرغبة فى أن يقدم لها « روكبيكيه » دليلا ماديا من أدلة الحب ، كأن يمسك بيديها ، أو يقبلها . ولكنه لم يفعل شيئا من ذلك ، وكأنه كان يفقد كل شجاعته اذا ماجلس فى حضرة «مدموازيل

جوفر » ! .. فاذا ماغادرها ، عاد اليه الحماس والحرارة ، وأسرع يطفىء وقدتهما فى صحبة احدى صديقاته السابقات !

وما ان انتشر نبأ الصداقة التى نشأت بين الطبيب و « السيد » ، حتى بدأ أصدقاء هذا الاخير يهنئونه على توفيقه وهم يتغامزون . وقال له صديقه اسكادافال : « لقد وقعت ياهنرى ، وهاأنتذا قد وصلت الى ما تشتهى !» .. أما دسبيرو فلم يقل شيئا ، واكتفى بأن يلقى نظرة ذات معنى على صديقه .. وكان « روكبيكيه » يكتفى بأن يبتسم للاصدقاء ، وهو يشعر بالغرور من جراء ظنونهم ، دون أن يتكلم أو يصحح هذه الظنون، حتى قال دسبيرو مرة يخاطب اسكادافال : « دعه أيها الاحمق ، ولا تسأله شيئا ، فأنت ترى أنه لن يجيبك عن أسئلتك ! »

وبدأت زيارات « روكبيكيه » تؤثر على « كاميل » ، حتى أصبحت تنتظرها وتحسب مواعيدها .. كانت تعيش حياة من تخلصت من الاسر ، لاسيما بعد أن عادت « مدام هوك » وبناتها الى (تونيان) ، وحل فصل الشتاء .. وعندما بدأ شهر أكتوبر ، اضطر « روكبيكيه » الى أن يلحق بوالدته فى مدينة (كليراك) فسافر اليها على جواده ، برغم وعورة الطريق وخطورته . وكان البرد قد بدأ يشتد الى درجة حالت دون الجلوس فى الحدائق ، مما حمله على أن يقلل من زياراته لكاميل . فأخذ يعتذر اليها بخطابات قصيرة ، كانت ترد عليها — هى الاخرى — بخطابات أقصر .. فقد كانا يشتركان فى النفور من الكتابة . وأخذ القلق يراود « مدام هوك » ، فحاولت أن تذكى من حماس « السيد » ، قائلة له :

— هيا أيها السيد .. تقدم الى الطبيب واطلب يد ابنته ! .. ماذا تنتظر ؟

فأجاب « روكبيكيه » ، بعد أن فكر قليلا : « أجل ، بكل تأكيد .. انني على استعداد لان أطلب يدها ، ولكن هناك والدتي ، وقد ترفض أن توافق على طلبي .. وهي الثرية لا أنا ! » .. وقالت زوجة رجل الدين : « ولكن ، ألا يمكنك الاستغناء عن مالها ؟ .. كم يبلغ ايرادك ؟ » . فأجاب : « عشرة آلاف فرانك » .

وكان « روكبيكيه » يكذب في هذا الجواب ، فان والده لم يترك له غير ديون متراكمة ! .. وقالت مدام هوك :

ـ عشرة آلاف فرنك ؟ ! .. انه مبلغ كبير يابني ، واذا أضفت اليه الثلاثين ألف فرنك التي تملكها « كاميل » ، أمكنكما أن تعيشا سعيدين .. لو كانت ابنتي مارت وخطيبها يملكان مثل هذا المبلغ لتزوجا منذ عام مضى !

واضطرب روكبيكيه عند ما سمع ذلك ، وطلب امهاله بضعة أيام ليتمكن من تسوية الامور .. وانقضى الشتاء ، وتبعه الربيع ، ثم عاد الصيف .. وفي الايام الاخيرة من شهر يونيو ، انهمكت الاناث الاربع ـ في دار آل هوك ـ في اتمام ملابس « مارت » ، التي أعلن خبر زواجها رسميا .. وكانت كاميل تتألم وتحزن كلما اقترب موعد زواج صديقتها ، مع التسويف في زواجها هي .. ولاحظ والدها الطبيب ـ ذات صباح ـ انها كانت محتقنة العينين لفرط البكاء . وكان ـ هو أيضا ـ قد بدأ يسأم كل هذا التسويف .. وفي نفس اليوم حضر « روكبيكيه » الى منزل هوك ، فجذبه «جوفر» من ذراعه ، وسار به الى مكتبه الخاص ، حيث قال له : « سيدي ! .. لقد سمحت لك بالدخول الى منزلي ، لانك كنت تظهر رغبة في الزواج من ابنتي .. ومنذ عام أخذت ترجيء الامر من شهر الى آخر ، وتعتذر عن ذلك بخوفك

من عدم موافقـة والدتك .. ومن الطبيعى ان والدتك لن تصدر موافقتها ، مالم تفاتحها أنت ، فأرجو أن تذهب اليها، وتستأذنها فى الزواج ، وتخبرنى بجوابها غدا ، والا كان عليك أن تكف عن دخول هذا المنزل ! »

وتمتم « روكبيكيه » فى ارتباك : « بكل تأكيد ! .. اننى أريد الزواج بكاميل ، ولكن مدام روكبيكيه ــ أمى ــ امرأة صلبة الارادة .. » . على انه انتهى بأن وعد بأن يخاطب أمه فى الموضوع فى نفس اليوم . وخرج وهو يشعر بالخجل، وقد نكس رأسه ، وغض بصره . وبادر فامتطى جواده ، ميمما شطر النادى ، حيث كان أصدقاؤه الثلاثة جلوسا أمام الباب يشربون ويستمتعون بشمس الاصيل . ولحظ بوريس أسى « السيد » وحزنه ، فقال له : « ماذا بك أيها المسكين ؟ .. انك غريب الشكل حقا ، هذا المساء ! »

وترجل روكبيكيه عن جواده ، وأمسك بيد صديقه، وقال له بصوت خافت : « أتحب أن تعرف مابى حقا ؟ .. اذن ، فاستمع ! » .. وأخذ يقص على صديقه ماحدث له منذ لحظة مع الطبيب جوفر ، وبوريس يهز رأسه ، واسكادافال يسعل من آن لآخر ، فقد كانت المسألة خطيرة حقا .. ولم يلبث بوريس ان قال ، بعد أن انتهى السيد من سرد كل التفاصيل : « ولكن .. أتحبها حقا ؟ »

وكان روكبيكيه قد بدأ يشعل لفافة من التبغ فأجاب صديقه بحركة تدل على الغضب وقال : « أحبها ؟ ! .. أحبها ! .. لقد قاسيت الكثير من العناء فى هذا الحب ، حتى بدأت أشعر باليأس ! »

واقترب بوريس بمقعده من « السيد » ، وكذا فعل اسكادافال ، ثم قال الاول بصوت منخفض : « انك لست

طفلا ياروكبيكيه ، وأحسبك كنت عاقلا لانك لم ترزق بولد من هذه الصغيرة .. » . فصاح روكبيكيه مقاطعا : « لا ، لا ! .. لم يحدث شيء من هذا ! » . فقال صاحبه : « اذن، ففي وسعك أن تبادر بالانسحاب ياعزيزي .. أما هي ، فقد كانت تدرك مسلكها معك تمام الادراك ، واذا لم تكن قد عبثت معك، فهي خليقة بأن تعبث مع سواك .. أليس هذا صحيحا ؟» .. واكتفى اسكادافال بأن راح يحرك يديه، وكأنه يقول : «هذا هو الحل الصائب ، وليس من الممكن أن يدلى أحد برأى أكثر صوابا من رأى بوريس ! »

ويلاحظ على هذه المناقشة ان الاصدقاء الثلاثة – وان كانوا قد عرفوا ان « روكبيكيه » كان يعامل « كاميل » بكل احترام – حرصوا على التظاهر بغير ماعرفوه ، حتى يظهروا أمام الشاب بمظهر ذوى الخبرة والتجربة ، وحتى يتملقوا مشاعره .. على انه لم يلبث ان امتطى جواده ، وانطلق نحو (كليراك) ، دون أن تثنيه وعورة الطريق . وما ان اقترب من قصر والدته ، حتى شعر بالاضطراب وعرف انه مقبل على معركة حاسمة .. فقد اعتاد أن يخشى أمه الى أقصى حد . وفى الحق انها لم تكن رقيقة ، ولا حسنة المعاملة .. وقد أدرك الشاب انه يقف بين نارين .. فهو – من ناحية – قد يثير سخط أمه عليه ، ومن ناحية أخرى ، قد يضطر الى عدم رؤية كاميل بعد ذلك .. فهل كان هذا فى مقدوره ؟ .. لقد كان يشعر بأنه لن يقوى البتة على ان ينساها !

***

وأوقف الشاب جواده على ربوة مرتفعة ، وهو يلهث تعبا، ونظر خلفه فرأى مدينة (تونيـان) وقد تنـاثرت منازلها وكنيستها ومبانيها .. وتملك الفتى الاضـطراب والتأثر ،

حين ذكر تلك الفتاة المعبودة ، التى يضمها منزل من تلك المنازل الصغيرة الممتدة أمام نظره ، وتذكر انه قد لا يراها بعد ذلك قط !.. وغمغم : « انها تحبنى ، وستموت حزنا لفراقى بكل تأكيد ! »

وما لبث ان استأنف سيره ببطء ، وهو يقول لنفسه : « هيا بنا ! .. سأتقدم بطلبى الى والدتى ، ولعلها توافق فى النهاية على الزواج ! »

(٢)

كان بين الواجبات التى يجب أن تؤديها مدام هوك ــ بوصفها زوجة لاحد رجال الدين ــ واجب تلقين الفتاة يوم زواجها مايسمونه « النصائح الاخيرة » . وكانت لها فيما يتعلق بتلك النصائح ، آراء غريبة . فهى لم تكن تؤمن بأن من الخير الفتاة أن تظل جاهلة بهذه الاسرار او النصائح حتى يوم زواجها .. اذ ان ذلك خليق بأن يجعل الفتاة ــ فى يوم الزواج ــ مضطربة ، عصبية المزاج يتنازعها خطيبها وصديقاتها وصانعة الملابس فلا يتسع وقتها لكى تستمع تلك النصائح الجليلة الشأن .. بل انها لا تكاد تفهمها اذا جلست والدتها تسر بها اليها وسط الجلبة والضوضاء .. وتكون النتيجة أن تنفرد الفتاة بزوجها عقب حفلة الزواج ، وهى جاهلة بكل شىء .. بل ان المعلومات غير الواضحة ، التى لم تستطع أن تستوعبها او تستجليها ، قد تضاعف من ارتباكها ..

وكانت زوجة الكاهن تقول دائما : « هذا عين ماجرى لى .. فان عمتى ــ لان والدتى كانت قد ماتت ــ أسرت الى بكل شىء أثناء الحفلة الراقصة الصاخبة ، التى أقيمت ليلة زفافى ! .. انفردت بى وراء احدى الستائر ، وكان موعد

سفرى بصحبة زوجى قد دنا .. وكان على مقربة من المكان الذى وقفنا فيه بعض رجال يلعبون ، فكنت أسمع أصواتهم ـ من وقت الى آخر ـ حتى اننى لم أفهم شيئا مما ذكرته لى عمتى ، أليس كذلك يا زوجى ؟ »

لذلك قررت مدام هوك أن تشرح لابنتها « مارت » كل مايتعلق بالزواج ، قبل حلول موعده بأسبوعين على الاقل . وحدث أن كان اليوم الذى حددته لتشرح لابنتها واجبات الزوجة ، هو عين اليوم الذى أقصى فيه الدكتور جوفر « روكبيكيه » من منزله . وظنت مدام هوك أنه ما دام « السيد » قد سافر ليطلب من والدته الموافقة على زواجه، فلا ريب انه لن يلبث أن يعود فى اليوم التالى ليطلب من الطبيب يد ابنته رسميا .. وسرها ذلك ، وأوحى اليها بأن من الممكن ـ بشىء من الالحاح على آل روكبيكيه ـ التعجيل بعقد الزواج ، حتى يتسنى الاحتفال بزفاف « مارت » و « كاميل » معا ! .. وتصادف ـ عندما سعت الى ابنتها « مارت » ، حتى تلقى عليها النصائح الزوجية الاخيرة ـ ان وجدت معها كاميل ، فسرعان ماخطرت ببالها فكرة جديدة .. فما الذى يمنع من أن تصارح «كاميل» أيضا بكل أسرار الزواج ؟.. أليست كاميل على وشك الزواج ، فحالتها مثل حالة ابنتها مارت ، مع فارق بسيط فى الزمن ؟ .. وأدركت أن فرصة مثل هذه لن تسنح لها بعد ذلك ، فأمسكت بذراع كاميل ، ودفعت بالفتاتين الى غرفة لم يكن بها أحد ، ودخلت معهما ، ثم أغلقت الباب باحكام .

وهكذا عرفت « كاميل » و « مارت » فى وقت واحد تلك الاسرار الجليلة الشأن .. وكان ذلك أشبه بنسمة من أنفاس المرء، تهب على ذلك الغبار الخفيف المنتشر على الفاكهة،

عند ما يقترب الفم ليقضمها .. ومن حق مدام هوك أن تعترف بما كان لها من خبرة غير عادية بمثل هذه التعاليم ، فقد كانت ماهرة فى اخفاء الناحية الحساسة من الموضوع تحت ستار عدة اعتبارات دينية ووالدية ، وهى تمثل لها بالنبات والحيوان حتى تكاد الفتاة - بعد أن تنتهى من سماع كل ما ألقى على مسمعها - تعتقد أن الرابطة الزوجية طقوس دينية ، وان مخدع الزوجية معبد ، وانها ستكون - وزوجها - من بين الضحايا التى تقدم على مذبح هذا المعبد !

وأصغت الفتاتان الى مدام هوك ، وقد جلستا على مقعد طويل ، واشتبكت يداهما .. وكانت « مارت » تبتسم - بين وقت وآخر - ابتسامة ملؤها البشر والسرور ، فتبتسم أمها كذلك . أما « كاميل » فكانت - على العكس من ذلك - تزداد تضرجا وخجلا كلما تمادت « مدام هوك » فى حديثها . وقد اضطربت كثيرا لما سمعته عن الامور المجهولة . ولما كانت أقل ذكاء من « مارت » ، وأقل منها تعودا على الاستماع للاحاديث الدينية أو فهما لها ، فقد ظلت هناك أشياء لم تفهمها جيدا .. ومن جهة أخرى ، خيل اليها - فى تلك اللحظة - انها ترى بعينيها ما كانت تفهمه ، أو تظن أنها تفهمه ، فى الماضى !

وعند النهاية ، كان تأثر « كاميل » - مما سمعته من مدام هوك - قد وصل الى درجة كبيرة ، حتى لقد أحست بالحرارة تدب الى دمها ، وبدأت الكلمات تتسرب من أذنيها الى عقلها ، فيتردد لها صدى فى أعماقها مكررا : « أريد أن أتزوج ! » .. أما الشعور الآخر - الذى داخلها فى الوقت ذاته - فتمثل فى عاطفة نسائية خالصة ، اذ اعترفت لنفسها بأنها تتمنى أن يكون فى الوسع أن تسلم نفسها

لخطيبها دون أن يمسها فعلا .. أن تقدم له نفسها ، دون أن تكون مضطرة الى احتمال التصاقه بها أو اقترابه منها !

ولما انتهى درس الزواج ، تركت مدام هوك الفتاتين وحدهما ، وغادرت الغرفة . وما كادت تخرج، حتى ارتمت «كاميل» على صدر صديقتها ، وأخذت فى البكاء . وابتسمت مارت وهى تقبل شعرها ورقبتها ، وقالت لها : « ماذا دهاك يا عزيزتى ؟ .. ليس هناك ما يزعج الى هذا الحد ، فأنت تعرفين ان كل الفتيات يسلكن هذا الطريق ! .. أؤكد لك أننى أشعر بالسعادة ، لانى سأتمكن من أن أهب بول شيئا فريدا ! .. وأنت ؟ ! .. ألا تشعرين بشىء من الحب نحو المسيو هنرى ؟ » .. فأجابت كاميل : « بلى .. ولكن ألا يمكن أن يتم زواج بغير هذه الطريقة ؟ »

***

وكان نومها فى تلك الليلة مضطربا ، تتخلله الاحلام التى يختلط فيها الجواب ـ المرتقب فى اليوم التالى ـ بالتفاصيل التى سمعتها من مدام هوك . وتذكرت فى الصباح انها حلمت بأن شخصا جاءها ـ بعد أن تم زواجها بمدة ـ وأخبرها بأن الذى تم لم يكن زواجا فى الحقيقة !.. وجلست ـ طيلة الصباح ـ مع مدام هوك وبناتها ، ينتظرن الجواب ، وقد توترت أعصابهن .. بيد ان الطبيب « جوفر » لم يلبث ان أقبل ، وصارحهن بأنه لم يكن ينتظر شيئا ، وأن المسألة قد انتهت، وأنه مستريح اذ تخلص من ذلك الاحمق «روكبيكيه» !

وعند الساعة الرابعة ـ من بعد ظهر ذلك اليوم ـ وصل موزع البريد ، يحمل خطابا عليه طابع (كليراك) ، وقدسجل فيه روكبيكيه ـ فى كلمات موجزة متكلفة ـ ان بعض مهام عائلية استدعته الى باريس ، وانه لم يكن يعلم موعد عودته

.. واختتم اعتذاره بأن سأل كاميل ألا تحمل له حقدا بسبب فراق لم تسببه غير قوة الظروف ! .. والواقع ان أمه – مدام روكبيكيه – كانت امرأة خبيثة . وكانت قد سمعت ، من قبل ، عن علاقته بكاميل، فاتخذت عدتها لتصده عن هذا الزواج .. وما ان فاتحها ، حتى قطعت عليه حديثه، وخيرته بين أمرين : اما حرمانه من المرتب الذى كانت تمنحه اياه ، واما أن يسافر الى باريس فى الحال ، ليتلقى هناك شيئا من العلم .. وتعهدت بأن ترسل له ألف فرنك فى كل شهر ، لتساعده على نسيان حبيبته .

ولم يكن فى الصفقة أى غبن له .. لذلك لم يلبث أن قبل ماعرضته والدته ، بعد معارضة ضعيفة مصطنعة . ولما كانت « مدام روكبيكيه » تعرف تأثير الاسفار على الحب ، فقد أخذت تتعجل رحيل ابنها ، فلم تكد رسالته تصل الى المنزل المنعزل ، حتى كان هو قد وصل الى باريس فعلا ، وهو مسرور بحظه ، مزهو بوفرة ما كان فى جيبه من مال .. واذا كان قد شعر عند سفره بشىء من الحزن لفراق كاميل، فان هذا الحزن راح يتبدد كلما ازداد عدد الكيلومترات التى تفصله عنها .

وضحك « جوفر » وهو يقرأ الخطاب ، الا أنه حين رأى الدموع تملأ عينى « كاميل » ابنته، بادر فحملها بين ذراعيه، وسار بها الى غرفتها ، فأسلمها الى فراشها ، وغمرها بسيل من ضماته وقبلاته الرقيقة .. ولم يكن هناك مايؤثر على نفس « كاميل » قدر هذا العطف الابوى ، لان اباها نادرا ما كان يوليها شيئا منه ، بل انها كانت تشعر نحو أبيها برهبة وخوف ، فى بعض الإحيان . ولما كانت تثق فى والدها ثقة مطلقة ، فقد آمنت بصدق ما سرده على مسامعها عن أخلاق « روكبيكيه » وسيرته ، وما لبثت أن أحست بانقلاب

فى عواطفها ، وبأنها لم تعد تحبه .. وكان هذا الشعور وليد كبريائها قبل أن يكون منبعثا من قلبها .. فقد جربت — فى هذه المغامرة الاخيرة — سحر جمالها ، وعرفت انها لم تكن ضحية مزاحمة بزتها فى الجمال ، وانما كانت ضحية المصلحة المادية !

وعندما أقبلت « مدام هوك » وبناتها الثلاث ليواسين الفتاة ويخففن عنها ، كان الجرح قد اندمل .. ولكنهن لم يقتنعن بالهدوء الذى ظهرت به « كاميل » ، فأحطنها بكل أنواع العطف ، لانهن كن يعرفن حقيقة حزنها . وقالت لها زوجة رجل الدين : « لسوف أعثر لك على زوج آخر .. فى أى يوم شئت .. فمتى كانت المرأة جميلة مثلك ياعزيزتى ، لن يتردد الرجال فى السعى الى طلب يدها ! » .. ولم ينقض أسبوع واحد ، حتى كان كل أثر للصدمة قد زال ، مما أثار دهشة مدام هوك وبناتها ، وكدن يعجزن عن فهم فؤاد «كاميل» .. على انه لم تتح لهن رؤية تلك الحيوية المشبوبة التى كانت تندلع فى نفس الفتاة — عندما كانت تخطر لها فكرة الزواج القريب .. كانت الثورة قد أخذت تشتعل فى ذلك الشباب الذى قضى عليه أن يظل دون زواج ، مضطرا الى المحافظة على طهره ، بعد أن عرف كل شىء عن الحب .. كانت الانفعالات والخواطر التى أثارها اطلاع الفتاة على أسرار الزواج ، تزعجها الى درجة تعجز معها عن الاعتراف بها لنفسها ، فكيف كان يمكنها أن تصارح بها أى شخص آخر ؟ !

وكانت كل هذه المشاعر فى حاجة الى ما يغذيها ، كما يمر الجائع أمام واجهات المطاعم ، ينظر بنهم الى ما تعرضه من أطعمة .. وعلى هذه الحال ، اشتركت كاميل فيما كان يتخذ من استعدادات لزواج « مارت » .. ولم تكن الفتاتان



.. ورأت ((بول)) وقد انحنى الى الارض فى غرفة الاستقبال ، وأمسك بقدم ((مارت)) ـ وكانت جالسة على مقعد قريب ـ ثم خلع حذاءها ، وقبل طرف قدمها .. (انظر صفحة ٨٤)

تفترقان .. أفلم تكن تجمعهما رابطة وثيقة ، هى تصريحات «مدام هوك »وما أدلت به اليهما من أسرار الحياةالزوجية ؟! .. وكانتا ـ اذا أضناهما العمل ـ أسرعتا الى الحديقة ، وقد طوقت كل واحدة منهما خصر الاخرى بذراعها، وسارتا فى تؤدة ، تقترب رأساهما ـ أحيانا ـ فتضحكان ضحكة قصيرة ، وتميل كل منهما على الاخرى ـ فى أحيان أخرى ـ وهما تتحدثان عن يوم الزواج ، وليلته .. وكانت كاميل تقول لمارت : « ستحدثينني عن كل شىء ، أليس كذلك ؟.. اقسمى ! » .. ووعدتها « مارت » ، المرة تلو الاخرى . واتفقتا على أن تكتب لها كل شىء ، اذ كانت العروس ستقضى تلك الليلة بالقرب من المنطقة الجبلية ، بعيدة عن مدينة (تونيان) .. وتعهدت « كاميل » ـ من ناحيتها ـ بأن تحرق الخطاب بمجرد أن تفرغ من قراءته !

وتحول الحديث ـ بعد ذلك ـ الى النظريات المختلفة فى الزواج ، والى واجبات المستقبل .. ومن الصحيح أن كل الناس يهتمون بهذه الموضوعات ، ولكن الفتيات الكبيرات يشعرن بمتعة كبيرة فى معالجتها فيما بينهن ، كما كانت تفعل « مارت » و « كاميل » !

***

ولم يصل « بول دلكومب » الى (تونيان) الا قبل حفلة الزواج ببضعة أيام .. وبمجرد وصوله ، لم تعد « كاميل » تجد رفيقا لها غير « برت » و « مارى » .. وراحت تراقب الخطيبين مراقبة دقيقة ، لاسيما فى تلك اللحظات التى كانا يظنان فيها انهما منفردان بنجوة عن أعين الرقباء ، فيتبادلان قبلات طويلة ! .. وفى ذات مرة ، رأت « بول » وقد انحنى الى الارض فى غرفة الاستقبال ، وأمسك بقدم مارت ـ وكانت جالسة على مقعد قريب ـ ثم خلع حذاءها ، وقبل

طرف قدمها .. وما لبثت شفتاه ان راحتا تتحركان الى أعلى الساق رويدا .. أما « مارت » ، فقد احمر وجهها، وأغلقت عينيها وكأنها فى غيبوبة نشوانة فقدت فيها كل قوة على الحركة !

وشعرت كاميل – وهى تشهد هذا المنظر – أن قلبها قد امتلأ بعاطفة قوية ، لم تملك لها تفسيرا ، فابتعدت عن المكان مسرعة ، بعد أن تعمدت أن تحدث حركة بسيطة ، نبهت الخطيبين من نشوتهما !

واتفق الجميع على أن تنتقل الاسرة مع العروسين الى المنطقة الجبلية الجنوبية ، عقب حفلة الزفاف . وتأهبت مدام هوك لمغادرة منزلها – فى هذه المرة – دون أسف ، فقد عثرت على شخص يرغب فى استئجاره طيلة غياب الاسرة عنه . وكان هذا الشخص ضابطا من فرقة المدفعية ، أوفد الى تلك المنطقة فى مهمة عسكرية ، ولم يشأ أن يقضى فى الفندق الا أقل مدة ممكنة ، فلما سمع عن منزل الكاهن ، كتب يعرض أن يستأجره .

واهتمت « برت » و « مارى » بأمر هذا الضابط الغريب، بمجرد سماعهما عنه ، فتساءلت احداهما : « وما اسمه ؟ »

.. وأجابت الام : « جيروم جياكوميتى »

– أهو ايطالى الجنس ؟

– لا ، فكيف يتفق ذلك مع كونه ضابطا بالمدفعية ؟ .. يبدو انه كورسيكى الاصل !

وسألت برت : « وهل هو متقدم فى السن ؟ »

فأجابت مدام هوك : « لست أدرى » .. ثم التفتت الى زوجها متسائلة بدورها : « أهو ضابط صغير يا زوجى العزيز ؟ » . فابتسم الكاهن وهو يجيبها : « هناك ضباط من كل سن .. من الخامسة والعشرين حتى الخمسين ! »

وحاولت الفتيات عبثا رؤية الضابط فى الايام التالية . وقبل الزفاف بيوم واحد ، قررت مدام هوك أن من الافضل للعروسين أن يقضيا الليلة فى منزلها ، حتى لا يصيبهما الاعياء الشديد اذا سافرا فى اليوم ذاته ، وبعد حفلة الزفاف وما يتجشمان فيها من متاعب .. بيد ان عقبة قامت فى طريق ذلك ، فان الضابط « جياكوميتى » كان قد أرسل خادمه ، واتفق مع أسرة الكاهن على الانتقال للمنزل فى اليوم ذاته .. لذلك لم يكن ثمة بد من أن يطلبوا السماح لهم بقضاء يوم آخر بالمنزل .. ولم تكن « مدام هوك » راغبة فى اغضاب مستأجر لم تكن تتوقع العثور على بديل له، ومن ثم ذهبت اليه بنفسها ـ فى الفندق ـ لتستأذنه فى الامر !

ولما عادت ، كانت بناتها ينتظرنها بنافذ الصبر ، حتى مارت ! .. وأخذن يسألنها عن الضابط ، فأجابت : « انه لطيف جدا .. وليس متقدما فى السن بالمرة ، بل انه أسود الشعر .. وان لم يكن غزيره ! »

ـ وهل دخلت الى غرفته ؟

ـ لا ، بل طلبت رؤيته فى غرفة الاستقبال ، بالطابق الاول من الفندق . فحضر لرؤيتى بلباسه الرسمى .. وهو أسمر اللون ، ضيق العينين، لامعهما الى درجة كبيرة .. وهو قوى الجسم ، وان كان قلة فى القوام !

وكانت « كاميل » تستمع الى هذه التفاصيل باهتمام .. كما راحت « مارى » و « برت » تصغيان الى كل كلمة ، وقد لاح لهما ـ فى ذلك الضابط الغريب ـ زوجا محتملا لواحدة منهما ، حتى ان مارى لم تتمالك إن تمتمت بصراحة ساذجة : « مما يؤسف له ألا نتمكن من البقاء معه هنا سوى مدة قصيرة ، بسبب سفرنا ! » . فابتسمت مدام هوك ،

وقالت : « هذا حين ما خطر لى ، فرأيت ان من الخير ان نتعرف اليه ، ولذا دعوته الى حفلة الزفاف ، فى الغد ! »

وصفقت الفتاتان فرحا حين سمعتا هذا الخبر ، وصاحت احداهما : « مرحى ! .. وهل قبل الدعوة ؟ » . فأجابت أمهما : « نعم .. لقد اعتذر فى بادىء الامر – طبعا – ولكننى أخبرته ان الشبان قليلو العدد فى الحفلة ، وان لدينا فتيات كثيرات ، فقبل الدعوة أخيرا ، ووعد بالحضور ! » . وهنا هتفت مارى : « ترى من التى تستأثر به .. اننى أريده بكل قلبى ! » . فقالت أمها : « بل يجب أن تلازمى شقيق بول ، بوصفك من وصيفات الشرف .. وفى وسع « كاميل » أن تلازم الضابط ، وستكونان زينة وبهجة للحفل ، برغم انه أصغر حجما منها ! »

وانقضى النهار التالى فى اعداد الغرفة التى كانت «مارت» تنام فيها – من قبل – وتزينها .. وأخذت « كاميل » تفتقد صحبة صديقتها ، وهى بعد لما تفارقها ، وتشعر بشىء من الاسى كلما خطر لها انه كان من المحتمل أن تنهمك هى الاخرى – فى ذلك اليوم – فى التأهب للزواج ، لو أن الامور سارت فى مجراها الطبيعى .. وليس هناك ماهو أفعل فى نفوس العذارى ، من رؤية الاستعدادات لحفلات الزفاف ، فكثيرا ما راحت كل من « مارت » و « برت » ترتمى بين ذراعى الاخرى .. وأخذت « برت » تبكى ، وهى تردد : « سأنام وحدى بعد اليوم .. لا ، لا ! .. لن أتمكن من النوم وحدى .. مارى ، هل تنامين الى جانبى ؟ » . فكانت مارى تضحك ببساطة ، وتقول انها تعودت أن تنام وحدها ، وان وجود «برت» الى جوارها كفيل بأن يزعجها ويحرمها النوم !

***

وفى صباح اليوم التالى أخذت كاميل تساعد العروس على ارتداء ملابسها .. ولما رأت « مارت » ـ فى النهاية ـ وقد ارتدت كل ملابسها الناصعة البياض ، وتبدى نحرها وذراعاها عارية ، اضطربت لفكرة مرت برأسها . فقدتذكرت المنظر الذى رأته منذ أيام قلائل ، حين كان « بول » يقبل « مارت » .. وجمح خيالها ، فصور لها مارت فى ذلك المساء ، وقد تجردت من كل ملابسها ، و « بول دلكومب » عند قدميها !

وكان جميع المدعوين قد حضروا ، كما حضر الضابط «جياكوميتى» مرتديا ملابسه العسكرية ، ومتحليابأوسمته، فأثار مروره فى الشارع الرئيسى من القرية اهتمام الناس ، وتبعه عدد من الغلمان مسافة طويلة وهم يطيلون النظراليه، وقد ألجم ألسنتهم الاحترام الذى داخلهم نحوه .. حتى اذا دخل منزل القس سار متمهلا ، ثم اتجه صوب « مدام هوك » وحياها باحناء رأسه، فصافحته ، وقدمته الىزوجها والى بعض المدعوين ، ثم الى أحد رجال الدين ، والىالطبيب « جوفر » .. وسارت به ـ بعد ذلك ـ الى « كاميل » ، وهى تقول : « سيدى الضابط ، هل لك أن تقدم ذراعك الى « مدموازيل جوفر » ، ابنة الطبيب الذى ستصبح جارا له منذ الغد ؟ »

وحيا جياكوميتى « كاميل » ثم أخذ يطيل النظر اليها ، فتضرج وجهها تحت تأثير نظرته الطويلة ، التى خيل اليها انها كانت تنفذ الى أعماق جسدها ، فترسل رجفة فى أطرافها ، وكأنها عناق خفى .. وكانت هى وحدها ، بين المدعوين ، التى لاحظت تلك الجذوة التى اتقدت فى عينى

الضابط .. وكانتا عينين يمكن للمدقق أن يقرأ فيهما انهما لرجل أحبته كثيرات من النساء ! .. ودون أن يتفوه بكلمة، قدم ذراعه الى « كاميل » ، وقادها الى العربة التى اقلتهما الى الكنيسة . على انهما لم يكادا يبلغانها ، حتى افترقا . فقد جلست السيدات فى الجانب الايمن ، وجلس الرجال فى الجانب الايسر .. ولكن المصادفة وضعت مقعد « كاميل » مواجها لمجلس جياكوميتى ، فكانت كلما رفعت عينيهاوجدته يرمقها بتلك النظرةالحادة، التى تسبب لها اضطرابا نفسيا .

ولما انتهت الحفـلة ، عاد الجميع الى منزل آل هـوك ، ورفع الحاجز بين الحديقتين ـ حديقة جوفر وحديقة هوك ـ وأقيم الحفل فيهما، بين الازهار . ولم يفترق بول عن مارت طيلة تلك المدة . وبعد أن تبادل « جياكوميتى » بضع كلمات مع « كاميـل » ، غادرها ليلحق بالطبيب ، وراح يجـاذبه الكلام ، حتى عرف ان أم ابنته الحسناء كانت ايطالية .. وكذلك كانت أمه ، كما قال للطبيب . وأخذ الاثنان يتحدثان عن ايطاليا الجميلة ، حيث قضى الضابط مرحلة طفولته ، وحيث رأى « جوفر » ـ من قبل ـ نور الشمس فى عينى ياسمينه .. حتى اذا مد العشاء ، جلست كاميل الى جانب جياكوميتى . وحاول ـ فى مبدأ الامر ـ أن يتحدث اليها ، فأطرى جمال العروس مارت وبهـاء الحفلة .. وأرادت أن ترد عليه ، فتمتمت ببضع كلمات ، بصوت مضطرب ، اذ أن كل ماانتابها من عواطف ـ طوال النهار ـ سبب لها انفعالا عصبيا .. وكم تمنت ـ اذ ذاك ـ أن تغادر كل المـدعوين وتهرب الى غرفتها ، وتبكى حتى تفرغ كل ما يملأ قلبها من هموم عن طريق عينيها .. ففى تلك الظروف يكون تأثر المرأة بالغا أقصى نهايته ، فتتعرض لاقسى المؤثرات والافكار ، دون أن تجد سندا تعتمد عليه .

وأخذ جياكوميتى يراقبها بعين متفحصة ـ للحظات قصيرة ـ ثم كف عن محادثتها حتى نهاية المأدبة . واذ غادر الجميع المائدة ، انتقلوا الى الفندق ، حيث بدأت الحفلة الراقصة .. وعند منتصف الساعة الحادية عشرة ، انسحب العروسان من الحفلة ، وتبعتهما مدام هوك ، بينما بقيت « كاميل » و « مارى » و « برت » .. وراقصهن الضابط تباعا ، ولكنه آثر « كاميل » بالقسط الاوفر من صحبته .. وكان مسرورا ، منشرحا ، ولكنه لم يتعد حدود اللياقة .. فاذا ما شغلت « كاميل » بالرقص مع غيره ، كان يسعى الى الطبيب ليحادثه .. وارتاح جوفر الى حديثه ، فكان يود أن يطيل منه ، ولكن الضابط كان يتركه ـ عندما تبدأ الموسيقى فى عزف لحن جديد ـ ليأخذ « كاميل » بين ذراعيه ، ويرقص معها .. وكانت الفتاة تترك له قيادها ، وتستكين الى ذراعيه وقد شحب وجهها ، واضطربت نفسها .. وكثيرا ما كانت حركاتها ترتبك ، اذ كان يخيل اليها انه يضمها اليه بطريقة تختلف عن طريقة الرجال الآخرين الذين راقصوها من قبل !

وأخيرا ، خلا الفندق من المدعوين ، فسارت الفتيات الثلاث ـ كاميل ومارى وبرت ـ فى المقدمة ، وتبعهن الكاهن هوك والطبيب جوفر والضابط جياكوميتى ، الذين كانوا يسيرون بخطوات بطيئة ، وقد اشتبكوا فى جدل علمى .. وأمام المنزل المنعزل ، تبادلت الفتيات القبلات ، وتفرقن .. الا ان الطبيب دعا الكاهن والضابط الى دخول منزله ريثما يفرغوا من موضوع النقاش الذى دار بينهم ، برغم تلك الساعة المتأخرة من الليل ..

وشغل الرجال الثلاثة بالحديث والشراب ـ داخل الدار ـ فلم يفطنوا الى ان « كاميل » كانت تجلس صامتة ،

شاردة البال ، نافدة الصبر .. وما لبث جياكوميتى ان تهيأ للانصراف ، فنهض القس بدوره ، وتأهب لينفذ الى داره عبر الحديقة .. وشاء الطبيب ان يرافقه ، فوكل أمر جياكوميتى الى ابنته قائلا : « اذهبى يا كاميل ، فافتحى للضابط الباب المؤدى الى الطريق ، فهو لم يألف طريقة فتحه ! » .. وهم الضابط بأن يعترض ، ولكن « كاميل » كانت قد سعت الى الباب ، مضطربة الفؤاد ، وقد جمد الدم فى عروقها ، وكأنما كانت غريزتها توحى اليها بحدث وشيك الوقوع !

وقال « جياكوميتى » بصوت عال ، اذ بلغ الباب الذى فتحته له : « شكرا يا آنستى ، ومعذرة لازعاجك ! »

ثم وقع الحدث المرتقب ، فجأة .. فبحركة سريعة ، مد الضابط ذراعيه ، فاحتواها بينهما ، وضمها اليه بطريقة مثيرة ، لاتنم عن براءة قصده . وطبع على شفتيها قبلة !

٣

أسرعت كاميل الى غرفتها ـ بعد المفاجأة التى حدثت لدى الباب الخارجى ـ تحتمى بها وقد كاد رأسها يشتعل بالحرارة ، واضطربت جوارحها ، وخيل اليها أن مطرقة حادة تنزل على رأسها فتملأه بالحرارة والدم . وخلعت ملابسها ، واستلقت على فراشها دون أن تحاول تهدئة أعصابها وأخذت عيناها تتطلعان ـ فى ذلك الظلام السائد ـ الى رؤى غريبة ، مختلفة ، كأنها اشباح تتحرك فى الظلام .. ثم ، اثقل الوسن العينين المرهقتين ، فانقذ « كاميل » من اضطرابها ، واسلمها الى سبات عميق .

ولما استيقظت ، كان النهار قد تأخر .. وعادت اليها

ذكرى قبلة الامس ، فاختلج جسمها ، وشعرت كأن تلك القبلة لا تزال تلهب شفتيها وتؤثر فيها .. ثم تلاشى ذلك الاثر، ليحل محله أثر آخر، فداخلها شيء من الالم ، وانبثقت الدموع ـ دموع الضعف والذلة ـ من عينيها ، وتمتمت تقول : « ياللبائس التعس !..ماذا يحسبني حتى يعاملني هذه المعاملة ؟ » .. وأخذت تؤنب نفسها بقسوة لانها تركته يفعل بها ما شاء ، دون أن تدافع عن نفسها بحركة أو صيحة .. بل انها لم تسرع لاخبار والدها بما حدث ، بعد أن رحل جياكوميتى وغادرها . أية قوة خفية تسلطت عليها فى ذلك الوقت فسلبتها ارادتها !

وكانت قد اعتزمت ـ عند استيقاظها ـ أن تقص كل شيء على والدها ، ولكنها ـ حين فكرت فى العواقب ـ ارتعدت لما قد يترتب على هذا العمل .. أفلم يكن من الواجب عقب ذلك أن يبارز والدها الضابط ؟.. واذا قتله الضابط، فماذا يكون من شأنها ؟ .. وكيف تكون حالها ازاء الضجة والاشاعات التى تنتشر بعد ذلك فى المدينة ؟ .. ثم ان هذا كله ، لن يمحو عار القبلة التى طبعها ذلك الفم على فمها .. اذن فليظل الامر سرا تحفظه هى وحدها وستنساه بمرور الايام ، بل انها ستحاول دائما الا تستعيد ذكراه ! .. ثم قالت لنفسها : «ولن ارتضى أن يعود هذا الضابط جياكوميتى الى زيارتنا مرة أخرى ! »

ولما ارتدت ملابسها ، نزلت الى الحديقة . وكان جوفر قد سبقها اليها ، فسمعته يحادث شخصا ..وما لبثت أن سمرت فى مكانها عند باب المنزل، لفرط ما اعتراها من غيظ ، اذ كان « جياكوميتى » قد نفذ من حديقة المنزل المجاور ، ووقف يحادث الطبيب !

وتقدمت « كاميل » ـ مضطرة ـ وقد امتلأت نظراتها

بالاحتقار ، فقبلها والدها على خديها وهو يقول لها بعطف : « أهكذا أيتها الكسول ؟ .. لقد تركت آل هوك يرحلون عن المدينة دون أن تعنى بوداعهم . ألا تعلمين أن الساعة بلغت الثانية عشرة ؟ » . فأجابته متعللة بأنها كانت متعبة ، وردت تحية جياكوميتى فى غير احتفال ، ثم راحت تعبث بورقة من أوراق الشجر ، فواصل الرجل حديثه مع والدها دون أن يعتريه أقل خجل أو حرج . ودهشت « كاميل » لذلك الثبات الغريب ، حتى لقد اوشكت أن تخال ان حادث الامس لم يكن سوى حلم صوره لها التعب ! .. ولكنها استبعدت ذلك، فان القبلة تركت أثرا كانت تجهله فى الماضى، ولم يكن فى امكانها ان توحى به الى نفسها .. ومن ثم فلا بد أن الحادث وقع فعلا ! .. ومع ذلك ، فقد تجرأ الرجل على العودة الى المنزل ،وقد استقبله والدها !

وغادرهما الضابط ليقوم بعمله ، بعد أن اخبرهما أنه سيذهب عن طريق النهر .. وعندما جلست « كاميل » وابوها الى المائدة ، تحدث الدكتور جوفر طويلا عن جياكوميتى ، وقال عنه : انه ماهر فى المناقشة والفلسفة ، وله آراء خاصة فى موضوعات كثيرة . فتمتمت : « انه لا يعجبنى ! » .. واذ ذاك رمقها جوفر بنظرة متسائلة . وكم كانت ترغب – فى تلك اللحظة – ان تصيح باعلى صوتها : « لقد اهاننى ! » .. ولكنها لم تدر ما الذى أوقف هذه العبارة فى حلقها ، واكتفت بأن قالت : « لسوف انسحب كلما جاء ! » . فهز الطبيب كتفيه ، وقال : « هذا عجيب .. فكل مناقشة جدية لا تروق لك وتضايقك ! » . وما أن سمعت كاميل هذا التأنيب حتى اتسعت حدقتاها . ورأى جوفر انها تكاد تبكى ، فقام من مقعده وقبل وجنتيها قائلا : « لا تبكى يا عزيزتى كاميل ، وأرجو ألا تظهرى عدم رضائك

لجياكوميتى ، اذ أننى سوف استثقل الليالى بعد رحيل آل هوك ، وفى وسعه أن يسلينى قليلا » .

ولم تعقب كاميل ، ولكنها شعرت بأن تردد جياكوميتى سيضايقها ، وانها يجب أن تحول دون حضوره ، بأن تقص على والدها نبأ الاهانة التى لحقتها ولكنها توقفت عن الاعتراف مرة أخرى ، اذ عرفت ان ارجاءها الاعتراف بما وقع ـ كل ذلك الوقت ـ سيظهرها بمظهر الشريك .

ولما انتهى تناول الطعام انسحب جوفر الى غرفته ، وهو يشعر بشىء من الالم .. وكذلك كاميل عادت الى غرفتها ، وامسكت بقطعة من القماش تحاول التطريز ، ولكنها كانت تغفلها من حين الى آخر ، فتكف عن التطريز لتستغرق فى أفكارها .. ونظرت الى النهر من بعيد ثم قالت لنفسها : « لابد انه هناك الآن .. ترى هل يفكر فيما ارتكبه بالامس ؟ ! » . واذ استعرضت فى ذاكرتها ما وقع منه ، بدا لها الحادث فظيعا مرعبا ، لم تكد تصدق أن الضابط الشاب يقدم عليه ، ولم تجد له غير تعليل واحد ، هو تأثير ما شرب من خمر فى حفلة الزواج !

وفكرت لحظة فى هذا التعليل ثم اهملته .. كلا ! ان جياكوميتى لم يكن ثملا ، فهو لم يشرب ـ أثناء الحفلة ـ غير القليل من الخمر ، ويكاد يكون هو الوحيد الذى احتفظ بوقاره ، الى جانب الطبيب والكاهن ، اذ أن ثلاثتهم لم يتمادوا فى الشراب . ولذا فكرت كاميل فى نفسها ، قائلة : « لا سبيل الى أن التمس له عذرا ، فهو قد فكر فى الاعتداء سلفا ، والا لما ظل يحدق فىَّ طول اليوم . وبأية نظرات ! .. لماذا كان ينظر الىَّ بذلك الشكل ؟ .. انه لم يكن يوجه الى « مارت » أو « برت » مثل تلك النظرات التى وجهها الى ..! »

***

وما لبثت هذه الفكرة ـ وهى انها وحدها التى تمكنت من أن تجتذب نظر الضابط الغريب ـ أن ادخلت شيئا من الزهو الى قلبها .. ومر بخاطرها ان جمالها غير العادى كان خمرا قوى الاثر ، يشربه كل من ينظر اليها بعينيه فلا يلبث أن يفقد صوابه وعقله ، وان ذلك هو السر فى العمل الجنونى الذى ارتكبه جياكوميتى فى اليوم السابق ، عندما اتيح له الاختلاء بها ، فهو ـ برغم قوة ارادته ـ قد فقد شعوره للحظة .. وقالت كاميل تحدث نفسها ، وهى تشعر بفخر لم تشأ أن تعترف به لنفسها : « ومع ذلك فان جياكوميتى لبس رجلا من السوقة ، وانما هو رجل عاش فى بلدان كثيرة غير (تونيان) ، ورأى كثيرات من النساء ! »

واستعرضت ـ فى تلك اللحظة ـ حياة الضباط الملأى بالحوادث الغرامية والوقائع الحربية ، كما تتصورها فتيات الريف دائما .. ثم ساءلت نفسها ، ولما تستقر افكارها بعد الى شىء معين : « أتراه يحبنى ؟ »

وهنا تعن للكاتب ملاحظة جديرة بالذكر ، فان الفتيات الصغيرات ، قليلات التجربة ، يخلطن دائما بين من يرغب فيهن ومن يحبهن ، فالرغبة والحب ليسا ـ لدى قلوبهن ـ الا شيئا واحدا .. وليس يهمهن من الامر سوى أن يحببن وأن يكن محبوبات .. وهن يعتقدن أن ذلك هو مبدأ الرجال أيضا .. ولابد للفتاة منهن من أن تمر بتجربة قاسية ، حتى تنزع من عقلها هذه الفكرة الخاطئة ، وتثوب الى رشدها !

وخلصت « كاميل » ، بعد طول التفكير ، الى النتيجة الآتية : « انه يحبنى ! .. لقد احبنى منذ رآنى ! .. والآن ماذا ينتوى أن يفعل ؟ .. أيطلب الزواج منى ؟ »

هاتان الفكرتان ـ الحب والزواج ـ تمتزجان معا في
خيال الفتاة الطاهرة الساذجة فلا تكاد تفكر فى احداهما
وهكذا انتهى حلم «مدموازيل جوفر» الى الزواج من الضابط
جياكوميتي . ولكن كبرياءها ثارت عندما مرت بخاطرها
ذكرى الاهانة التى لحقتها منه بالامس ، وصاحت فى نفسها
« يتزوجنى ؟ !.. كلا ، ابدا ! .. لن أراه مرة ثانية ، وإذا
عاد الى هذا المنزل فسوف ألجأ الى غرفتى ، حتى لا التقي
به ! »

وأخذت تذكى فى نفسها ذلك الغضب الذى كانت تشعر به
في الصباح .. ولو انها استطاعت البكاء ، لاعانها ذلك على
أن تسترد شيئا من هدوئها . ولكنها لم تتمكن ، فأدركت ـ
دون ان تعترف لنفسها بذلك ـ أن الجرح الدامى فى قلبها
الذى خلفه تصرف جياكوميتى بالامس ، قد خف المه
واصبح أقل احساسا مما كان . وخرجت من غرفتها وهي
غير راضية عن نفسها ، ودخلت غرفة والدها الطبيب .
وكان يقرأ ، وقد أسند قدميه الى مقعد آخر فقبلت جبينه
عند مفرق شعره .. وابتسم « جوفر » دون أن تفارق
عيناه الكتاب الذى كان يقرأه .. ثم ذهبت « كاميل » الى
الحديقة ، وقد شعرت بالسرور والابتهاج بعد هذه القبلة
وأحست أن أحزانها قد انكمشت .. وكانت الشمس قد
أوشكت على المغيب ، فداخلت الفتاة راحة وهناءة ، وهى تجول
بنظراتها فيما حولها ، وتسرح بصرها عبر حديقة الضابط
« جياكوميتى » الى الافق ، الذى لاحت عنده غابات
الصنوبر ..

وتأملت الفتاة جمال الطبيعة ، ثم رفعت عينيها فرأت
نقطة بيضاء بعيدة ، عرفت أنها بعض الثلوج التى تغطى قمم
حتى تخطر لها الاخرى ، فليست تملك أن تفصل بينهما ! .

الجبال . وذكرتها الثلوج والجبال بصديقتها «مارت» التى غابت عن بالها طيلة ذلك اليوم .. كانت « مارت » هناك ، فى تلك المنطقة الجبلية فى الجنوب .. ولابد انها لم تعد عذراء .. اصبحت امرأة ! .. ولا ريب فى ان پول دلكومب قد تمكن من ارضائها ، واشبعها قبلات مثل تلك القبلة التى تلقتها بالامس من جياكوميتى ، اللهم الا اذا كانت مثل هذه القبلة محرمة .. حتى على الازواج !

واذ بلغت أفكارها هذا الحد ، شعرت الفتاة بشىء من الانفعال والقلق ، واحمر وجهها .. ثم غشيها شعور مبهم ، وكأنها تنتظر وقوع ما يكمل حوادث الامس .. ولو انها تمكنت من قراءة ما خالج نفسها — فى ذلك الوقت — لأدركت انها ما كانت تود أن تقف التطورات عند المرحلة التى وصلت اليها . حتى لقد بات عليها أن تفكر فى سبب تعلل به لنفسها بقاءها فى الحديقة — بعد العشاء — وقد كانت تعلم أن جياكوميتى سيحضر لزيارة والدها .. وقالت لنفسها فى النهاية : « لست أود أن يظن اننى أخشاه ! »

***

وكان الدكتور جوفر يجلس بجانب ابنته فى الشرفة المطلة على الحديقة ، وقد مد احدى قدميه ، حين ظهر الضابط من الجانب الآخر من حديقته ، فناداه الطبيب : « تفضل يا سيدى الضابط لتقص علينا نبأ ما قمت به فى مهمتك الصباحية ؟ »

وكان الضوء كافيا لكى تميز « كاميل » ملامح الضابط .. فلما اقترب منهما ، أحست بأن كل الثقة التى كانت تملأ نفسها قد تبددت ، وانها كما كانت بالامس تماما .. تشعر بنظرات الضابط كما لو انها كانت تنفذ الى أعماق

جسمها ! .. على أنه لم ينظر اليها الا لحظة قصيرة ، ووجه اليها بعض عبارات الاحترام المناسبة ، ثم أخذ يتحدث الى والدها .

وكانت كاميل قد تقهقرت بمقعدها ، وأخذت تستجمع ارادتها تدريجا ، حتى استطاعت أن ترفع بصرها الى الضابط . وكانت قد سمعت القوم يتحدثون عنه بالامس ، فيطنبون فى ذكر جماله .. ولكنها حاولت — طوال ذلك اليوم الذى اوشك على الانتهاء — أن تتذكر ملامحه ، فلم تتمكن ! .. اما الآن ، فقد راحت تتأمل باهتمام ملامح ذلك الوجه النشيط ، الذى كان من الصعب على الانسان أن يدرك شيئا عن صاحبه ، مهما أطال النظر اليه .. وعندما انحدرت نظرات كاميل الى شفتيه ، شعرت برعدة تسرى فى جسمها !.. فقد كانتا رفيعتين ، دقيقتين ، لا تحركهما الكلمات الا حركة بسيطة ! .. لقد وضع شفتيه هاتين على فمها ! .. وتساءلت مرة أخرى : « ترى هل كان هذا صحيحا ؟ .. ولماذا يبدو لها هذا الحادث الآن فظيعا ؟ »

وما لبث الظلام أن ساد المكان . ولم تكن الليلة قمرية ، فأصبح من الصعب تمييز الاشياء ، ولو عن قرب .. وحوالى الساعة العاشرة ، استأذن الضابط فى العودة قائلا : « اسمح لى يا سيدى الطبيب بأن أغادرك مبكرا ، فأننى مضطر الى أن أستأنف مهمتى فى الغد ، مما يستدعى أن ابكر فى الاستيقاظ » ، فمد اليه الطبيب يده ، وهو يقول : « وأرجو أن تلتمس لى العذر بدورك ، اذا لم أتمكن السير معك حتى باب الحديقة ، لألم فى ساقى » .. ثم نظر الى ابنته وقال لها : « هلا فتحت الباب للضابط يا كاميل ؟ ! »
ونهضت كاميل وتقدمت الضابط وهى تفكر فى نفسها

قائلة : « لسوف يكرر ما فعله بالامس .. انني واثقة من ذلك ، واثقة ! .. ومع ذلك فانى أذهب معه ! » .. واشتد اضطرابها الى درجة عظيمة ، حتى انها لم تتمكن من فتح الباب .. كانت تنتظر - بل كانت توقن تماما مما سيفعله ذلك الرجل الواقف الى جانبها ، فى الممر المؤدى الى الباب .. بيد أن جياكوميتى لم يتحرك من مكانه ، بل وقف ينتظر ، حتى اذا ما تمكنت من فتح الباب ، حياها بصوت منخفض ، وخرج لتوه .

ووقفت كاميل بضع لحظات عند عتبة الباب، وقد عجزت عن كل حركة ، فقد كان اضطرابها اشد مما لو كان الضابط قد كرر معها ما صنعه بالامس ! .. وتبينت انها لم تفهم ذلك الرجل ، ولا مقصده مما فعل ! .. وتملكها الخجل بسبب ما اظهرت من اضطراب فى اللحظة السابقة ، بينما رأته هو على عكسها ، اذ عرف كيف يتمالك نفسه وشعوره .. وأخذت الافكار المضطربة تتصارع فى رأسها ، وهى تعود على مهل من الحديقة .. ثم قبلت والدها ، وعادت الى غرفتها .

وظلت بضع لحظات تطل من النافذة ، وقد اصابها الارق بسبب شعورها بالفراغ واليأس . وكان اليأس يختلط بشعور غامض يدل على عدم رضائها عن نفسها . وما لبثت أن سمعت صوت حركة خفيفة فى الحديقة ، وحفيفا بين أغصان الاشجار ، فأرهفت أذنيها وهى تحملق متفرسة ، الا أن الظلام السائد منعها من رؤية أى شىء .. وتملكها الخوف فأغلقت النافذة .. وعندما استغرقت فى النوم ، حلمت أن جياكوميتى يطوف حول فراشها .. واستيقظت فى تلك الليلة عدة مرات ، وهى شديدة الاضطراب وكان يخيل اليها - فى كل مرة - انها سمعت حركة قطعت عليها حبل نومها !

ولم تر الضابط فى اليوم التالى الا عند الساعة الخامسة مساء ، وكان يتنزه فى الحديقة . وما أن ابصرته حتى اشتد اضطرابها الى درجة انها لم تتمكن من الهرب . أما هو فقد تقدم من الباب ـ الذى يفصل بين الحديقتين ـ وقال لها فى بشاشة : « مساء الخير يا آنستى ! » .. واضطرت الى ان ترد عليه التحية ، فسألها عن صحة والدها .. ولم تجد ماتجيب به غير هذه الكلمات : «انهبخير!» . فقال الضابط : « اذن فقد شــفى بسرعة ؟ » .. وفكرت الفتاة فى والدها الجالس على مقعده ، وهو لا يقوى على الحركة ، ثم قالت وهى تعرف ما قد يترتب على جوابها : « كلا ! انه لم يشف بعد! »

وشعرت بحمرة الخجل تعلو وجهها ، والدموع تكاد تطفر من عينيها .. ونظر اليها جياكوميتى لحظة وهو يبتسم ، ثم مد اليها يده من وراء الحــاجز ، وصــافحها واعدا بأن يزور والدها بعد قليل .. وفعلا ، اقبل عندما هبط الليل ، فوجدها جالسة الى جانب والدها الطبيب ، تحت شـجرة التين فى الحديقــة .. وتركت له مقعدها عند حضــوره ، واسرعت الى غرفتها دون أن تدرى سببا لذهابها اليهـا ، فأخذت تذرعها هنيهة ، وهى لا تستبين كنه أفكارها ، ثم ما لبثت أن عادت الى الحديقة ، وجلست بجانب الضابط .. وكانت ليلة حالكة الظلام ، غاب عنها ضوء القمر ، حتى ان كاميل لم تكن ترى والدها ولا الضابط الضيف .. وبعث الظلام الى نفسها ثقة وطمأنينة .

وكان جياكوميتى يناقش والدها فى موضــوع فلسفى ، فحاولت ان تستمع اليه ، ولكنها ما لبثت أن شعرت بأنه أخذ يتزحزح فى مجلسه ليقترب منها .. واستمر جياكوميتى يتكلم فى الظلام ، ووالدها يحاوره فى الموضوع الفلســفى .

واذا بها تشعر بيد تقبض على يدها .. وافلتت من فمها آهة ضعيفة ، ولكنها تركت يدها فى يد الضابط لحظة ، وكأنها كانت ترتقب منه هذا المسلك .. ثم بدأ حياؤها يثور ويتغلب عليها ، فحاولت أن تخلص يدها ، ولكن اصابع الضابط القوية كانت تقبض عليها بشدة ، بينما كان ماضيا فى المناقشة الفلسفية مع والدها ، وهو لا ينفك يجذب اليه الفتاة ـ كلما اطال الحديث ـ بقوة واستمرار، حتى شعرت بأنفاسه الحارة تهب على وجهها .. وما لبثت أن أحست بعد ذلك بشفتين على خدها تبحثان عن شفتيها ! .. وتقابلت شفاههما فى ذلك الظلام ، فاضطربت « كاميل » لتلك القبلة اضطرابا شديدا ، حتى لقد افلتت من فمها ـ على الرغم منها ـ صيحة صغيرة !

وفى تلك اللحظة عينها ، دوت ضحكة « ارما » الحيوانية ، فترددت فى ارجاء المنزل .. وسمع « جوفر » ـ الذى كان يستمع الى آراء الضابط ـ فى صمت ـ صرخة كاميل ، فقال : « هل تكلمت يا كاميل ؟ » .. وافلتها الضابط ، اذ ذاك ، فاستجمعت جأشها لتقول : « لا يا أبت .. ليس هذا سوى ضحكة ارما ! »

وتبع ذلك سكون لم تسمع فيه غير هبات الهواء وهو يحرك اغصان الاشجار .. ثم استأنف الطبيب والضابط نقاشهما .. وكان الضابط محتفظا بسكونه الى درجة ان صوته لم يختلج بأقل اضطراب . . وما لبث أن نهض الضابط قائلا للطبيب : « قد لاتجد آرائى ذات قيمة يا سيدى الطبيب ، وأرى أن الوقت قد تأخر .. فأرجو لك ليلة سعيدة ! » .. وأجاب الطبيب : « الى اللقاء يا سيدى الضابط .. خير لك أن تنصرف خلال باب الحديقة ، بدلا

من أن تتحمل مشقة الخروج من باب المنزل .. ولعل كاميل ترافقك حتى السياج ! »

وتقدمت كاميل حتى طرف الحديقة . وكان هناك بعض الضوء .. وأخذت الفتاة تشرح للضابط كيف يفتح باب الحديقة ويغلقه .. وفى هذه المرة ، كانت شريكة له فى كل تصرفاته ، اذ تركته يصنع بها ما يشاء .. تركته يضمها بين ذراعيه اللتين كانتا تبحثان عنها فى الظلام .. وتذوقت فى تلك الليلة لذة القبلة الطويلة الصامتة ، وان لم تعرف كيف تردها !

***

والحق ان الصدفة تلعب دورا أهم من الدور الذى تلعبه الارادة ، فى حوادث التغرير بالفتيات ، كما تصورها تقاليد العصر .. فقد كان فى وسع « كاميل » ان تجد فى ماضى حياتها وتربيتها وأدبها قوة كبرى تقاوم بها الشر .. حتى بعد ما بدا من ضعفها أمام الضابط وما ارتكبه معها ، لولا أن الظروف تواطأت دون تمكينها من ذلك .. فلقد راحت - سحابة نهارها التالى - ترتقب المساء وما قديأتى به من أحداث جديدة ..ولكنها لم تكن تتوقع قط المفاجأة التى أقبل بها « جياكوميتى » فى المساء .. فقد قال للطبيب أنه راحل - فى مهمة عسكرية - الى بلدة بعيدة ، قد يضطر الى التغيب فيها اسبوعا ..

وهكذا قدر لكاميل أن تبقى وحيدة ، لا تؤنسها سوى ذكرى ذلك العناق الذى فاجأها به الضابط فى ظلال سياج الحديقة ، والذى لم تملك سوى أن تستلين له بعد أن طوقها الشاب بحركة سريعة ، والصق شفتيه بشفتيها عدة مرات .. على انها كانت ذكريات تستطيع استعادتها مرارا دون

مضض ، ودون أن ينتابها ذلك الشعور القاسى .. الشعور بالزلة !

وراحت تفكر فيما حدث ، وتستعيد فى ذاكرتها حلقات تلك السلسلة من قصة غرامها .. الحلقات التى لم يمض عليها زمن يذكر .. واذا تأملت دخيلة نفسها ، لاحظت حالة جديدة ، بعثت فيها نشوة ممتعة .. ذلك أن ما كانت تتمناه ـ منذ أمد بعيد ـ قد تحقق الآن ، وخرج من طور الاحلام الى الواقع، فأصبح هناك من يحبها !.. ولم يراودها فى ذلك أقل شك ، فصممت ـ مدفوعة بالفطرة ـ على أن تحب هى الاخرى .. ولم تلق صعوبة فى اقناع نفسها بأن الضابط أجدر بحبها من أى شخص آخر !

وأخذت تثير فى نفسها شعور الاعجاب به ، متوسلة الى ذلك ببضع حوادث صغيرة ، مما وقع لها فى الايام القليلة الماضية . فكانت تقول لنفسها : « انه جميل الشكل ، وقد صرحت مدام هوك بذلك بمجرد رؤيته ، وهى ذات خبرة فى هذه الشئون .. كما أن برت و مارى لم تحاولا أن تخفيا اعجابهما بالضابط الغريب ، ولا ميلهما اليه .. ثم انه ذكى كذلك ! » .. وقد شهد بهذا الذكاء والدها «جو فر» ، الذى صادف فى حياته كثيرين من أمثال هذا الضابط .. وهو شجاع ـ فوق ذلك ـ فهذه شيمة الضباط ، وقد حارب فى تونس ، وأبدى رغبة فى السفر للاشتراك فى المعارك التى كانت تدور فى (تونكين) بالصين .

وعلى أى حال ، لم يكن فى وسع « كاميل » ان ترى رجلا يختلف عمن اعتادت رؤيتهم من أهل (تونيان) ، اكثر مما كان الضابط جياكوميتى يختلف .. وراحت تقارنه بـ « روكبيكيه » مثلا و بـ « بول دلكومب » ـ الذى كانت تعتقد انه مثال للزوج المنشود ـ فكانت لا تتمالك أن تشعر

بالفرق الكبير، لاسيما بين رجل الدين – فى ملابسه السوداء، ولغته المنتقاه، المتكلفة، وكأنه يقرأها من كتاب مفتوح – وبين رجل الحرب النشيط، الذى لم يكن يرتدى غير الضرورى من ثياب أنيقة تبرز شكله فى أكمل مظهر! .. وكل هذا كان خليقا بأن يؤثر على شخصية متوسطة الذكاء مثل كاميل . فلم تنقض على غيابه – وعلى وحدتها – ثلاثة أيام، حتى وجدت فى نفسها الجرأة على أن تعترف لنفسها قائلة : « اننى احبه ! »

وراحت تكرر هذا الاعتراف، فيغمرها سيل من الطرب الداخلى، لا يلبث أن يستبد بها حتى يجعلها تنطق بعبارة : « اننى احبه ! » بصوت عال، وهى منفردة فى غرفتها الساكتة الهادئة .. واذ ذاك، كانت تسمع صوتا آخر، تكاد لا تميزه وان كانت تشعر بأنه مألوف لديها، فيحتج عليها باسم ذكريات الطفولة الطاهرة، ويدعوها الى المقارنة بين ماتشعر بهاليوم وما كانت تشعر به فى الماضى نحو «لويس» .. ولكن، ما أغرب ذلك! .. كيف لم تسمع هذا الصوت – الذى كان يؤنبها، وهو يذكرها بالماضى – عندما بدأت تتصل بروكبيكيه وتفكر بالزواج به ؟ .. وقالت لنفسها، وهى تحاول أن تعلل ذلك بدقة لم تعهدها من قبل : «لعل السبب فى ذلك هو اننى امنحه من نفسى أكثر مما كنت امنح المسيو هنرى روكبيكيه ! »

وصممت على أن تحتمل تأنيب ضميرها فى صبر واذعان؛ لانها كانت تتمنى أن تزول كل عقبة من طريق هذه المغامرة الجديدة التى بدأتها .

ولو أن الطبيب «جوفر» عنى – اذ ذاك – بدراسة حالة ابنته النفسية، لقدر له أن يقرأ على وجهها – خلال تلك الايام التى قضتها وحيدة فريدة – ما يدل على اضطرابها

الداخلى .. فما ان اجتازت « كاميل » مرحلة الانفعال المحموم ، حتى انتقلت الى مرحلة الاحلام الجدية ، الملحة .. ثم بدأت تشعر بالضيق ، والقلق ، ونفاذ الصبر ، لغياب الضابط .. وراحت تسائل نفسها : « ترى ماذا يكون .. اذا لم يعد اطلاقا ؟ ! »

وكانت تحاول أن تستعيد ثقتها وطمأنينتها ، وتعلل نفسها بان غيابه كان متوقعا من قبل ، وان فى وسعها أن تعرف فى الغد المدى الذى سيطول اليه غيابه. الا ان قلقا حقيقيا تملك قلبها، فجعلها ترى دليلا أقوى على انها كانت تحب الضابط. والواقع أن ما أزعجها هو خوفها من أن تنتهى هذه المغامرة كما انتهت غيرها – من قبل – دون أن تفلح فى تحقيق هدفها الاوحد .. الزواج !

وهكذا صممت على الا تترك فرصة الزواج تفلت من يدها فى هذه المرة .. والميل الى الزواج – فى بلاد الريف – يتخذ مظهرا قويا ، يخالف ما يظنه الانسان ميلا جنسيا . فالزواج – بالنسبة للفتاة الريفية – حدث من أهم احداث الحياة .. وقد أدركت « كاميل » تمام الادراك أن « جياكومبتى » هو فرصتها الوحيدة للحب والزواج ، فراحت تتمنى عودة الضابط بنفس السرعة التى كانت تتمنى بها الزواج منه .. ومع هذا الامل ، الذى سبق أن زين لها الزواج من روكبيكيه منذ شهور قليلة ، انتابها شعور آخر أذكاه اعجابها بجمالها .. ومرت عليها خمسة أيام وهى فى تلك العواصف المتقلبة ، حتى وجدت نفسها فى النهاية وقد بلغت ذروة الاهتمام والارهاق العصبى .. فان طول الانتظار وقلة الثقة أوهنا ارادتها تماما . ولاول مرة ، بدأ ينتابها الارق والاختناق بغصص البكاء . وكانت اذا عادت الى غرفتها – بعد أن ينتهى اليوم – اتكأت طويلا الى حافة نافذتها وهى

تطل منهـا ، وتسرح بصرها نحو السـياج الذى حجبت الاشجار المتعانقة بعض اجزائه ، وتتأمل الاركان التى تبادلت فيها الضمات الاولى القصيرة المثيرة ـ مع الضابط ـ والتى اصبحت ، بالنسبة لها ، الرمز الاعلى للحب وفوراته !

وفى مسـاء اليوم الذى كان « جياكوميتى » قد حدده كآخر موعد لغيابه ، أطالت الوقوف متكئة على النافذة ، لا تحول نظرها عن الباب الفاصل بين حديقة منزل آل هوك وحديقة منزلها .. وكان كل أملها أن ترى شعاعا من الضوء ، أو تسمع حركة بالمنزل ، أو تتبين ما ينم عن عودة الضابط . الا أن الساعة دقت الحادية عشرة مساء ، دون أن تسمع « كاميل » صوتا ، غير حفيف الرياح وهى تداعب الاشجار ، وأصوات بعض الحشرات الليلية الصغيرة وهى تدب بين الحشائش ..

وحل بها التعب ، واستبد بها الانفعال ، وطفرت الدموع من عينيهـا ، فتحولت عن النافذة ، وسـارت ببطء نحو فراشها ، وهى تفك ازرار ثوبها ، لتستبدل به قميص النوم .. بيد انها لم تلبث أن أحست بحركة خفيفة انبعثت من خلفها ، فوقفت كأنما قد سمرت فى مكانها .. وفى اللحظـة التالية ، شعرت بجسمها حبيسا بين ذراعين قويين !

وادركت فى الحال كل شىء .. واحتبست فى حلقها صرخة ذعر طارئة .. وحاولت أن تطلق صوتها ، فلم تتمكن الا من النطق بهذه الكلمات ، وهى تحاول أن تبعد فمها عن فمه الذى كان يلتمس قبلاتها : « والدى !.. والدى !.. انه على مقربة من هنا ! » .. فقد كان الفاصل بين مخدعها ومخدع الدكتـور « جوفر » ، مجرد جدار رقيق .

وشعرت بالشخص الذى فاجأها يشدها اليه من جديد ، ويحملها فى الظلام .. وتركته يفعل ما يشاء ، وقـد أخذت

تتذوق الضمات ولذتها من جديد ! .. ولم تجد ما تقول سوى كلمات انبعثت من فمها كهبات من هواء بارد : « أهذا أنت ؟ .. أخيرا ! .. أنت ! »

والحق انه لم يخطر لها ببال فى تلك اللحظة ـ لفرط نقاء نفسها وسذاجة قلبها ـ ان فى وسعه أن يسلبها أكثر من القبلات .. ولكن رجفة قاسية سرت فى جسدها فجأة ، فردت اليها وعيها وادراكها ، وجعلتها تفيق من سكرتها !

(٤)

يظهر أن أول تجربة غرامية عملية تمر بها المرأة ، لاتترك فى نفسها من الاثر سوى الشعور بالاشمئزاز ، المتولد عن رد فعل ذلك النوع من القسوة التى لابد منها فى تجربة كهذه ، وعن شعور بالهزيمة والاندحار ، يتصل دائما باحساسها بأنها فقدت شيئا لن يعود اليها .. هو عفافها !

أما الخليلة ، فانها تستعد لتجربة ثانية ، تسليما منها بأن هذا واجب عليها .. وأما العشيقة ، فيدفعها الى التجربة الثانية ، ذلك الشعور باللذة الذى لا يخلو منه حب أنثوى .. ولكن أغرب مافى الامر ، هو أن الفتاة التى تفاجأ فى غفلة ، وينتهك عرضها ـ على حين غرة ـ بفعل رجل لا تكون قد أحبته بعد ، ودون أن يكون لارادتها دخل فى سقوطها ، ينتهى بها الامر الى أن تصبح عشيقة الرجل الذى اعتدى عليها !

ويظهر أن هذه النهاية أمر لا يمكن تجنبه ، فاذا الضحية المسكينة تبدى ـ عند الهجوم الثانى من المعتدى ـ مقاومة أضعف مما تكون قد أبدت فى المرة الاولى .. انها تقاوم ـ اذ ذاك ـ وهى موقنة من الهزيمة . وقد يكون السبب فى استخذائها ، هو مايتولاها من ازدراء لجسدها الذى تدنس فأصبح لا يستحق مجهود الدفاع عنه .. على ان هذا قد

لا يكون السبب . وانما قد يرجع السبب الى رغبة اجتناء ثمرة السقوط ، أو ذلك الشعور الفريزى الذى يبعثه حب النسل فى النفس ، فيوحى للانثى بأن السرور لا يلبث أن يتبع الالم .. على انه مما لاشك فيه ، ان الانثى حين تستخذى ولا تقاوم ـ فى المرة الثانية ـ تكون منساقة ، بين مايسوقها من مشاعر ، تحت رغبة غريبة .. الرغبة ـ فى استعادة ذكرى أليمة من ذكريات الحب !!

ولم يحجم « جياكوميتى » عن التردد على « كاميل » فى الليالى التالية ، اذ كان قد سألها ـ بعد الليلة الاولى ـ أن تترك نافذتها مفتوحة .. وكأنما كان واثقا من أنها ستطيع أمره ! .. وقد أطاعته فعلا !

وكانت نفس الفتاة ـ فى تلك الآونة ـ غير مستقرة ، تكاد تكون قاب قوسين أو أدنى من اليأس .. وكانت تعلق أملها بشىء واحد فقط .. هو أن يحبها جياكوميتى ! .. لذلك حاولت أن تنسى ما ارتكبه الرجل من عمل مشين انطوى على الجبن والنذالة ، وجهدت فى أن تلتمس له عذرا ، هو أنه يحبها ، وانه لم يكن ملوما عندما ظنها متجاوبة معه ، اذ انها لم تعترض على ما ارتكبه معها فى الحديقة .. فضلا عن ان الطريقة التى سلكها ، انطوت على جرأة وعزيمة أعجبت بهما « كاميل » ، فى ركن من أركان قلبها !

وهكذا نجـ جياكوميتى فى استمالة الفتاة بحيث لم تعد تمتنع عن الاستسلام له .. اذ انه ـ فى بادىء الامر ـ لم يعمد الى القوة الا للضرورة القصوى ، ولكى يتغلب على مقاومتها الاولى .. حتى اذا اطمأن الى انتصاره بعد ذلك ، أخذ يترفق فى معاملتها ، وكأنه زوج محب رقيق ...
وهاهى ذى كاميل ـ فى اليوم التالى لذلك الاعتداء المروع ـ تقابله باضطراب ممتزج بالدمع ، ثم تشعر فجأة بأن الاضطراب

يتحول الى ذهول غريب ، أفقدها كل شعور ، لبضع دقائق .. ولما ثابت الى رشدها ، استغربت اذ وجدت الضوء يملأ تلك الغرفة التى كان يغمرها الظلام .. ولم يكونا قد تبادلا كلمة واحدة . ووقف جياكو ميتى ينظر اليها وعلى فمه ابتسامة غريبة .. وشعرت بشىء من الاستحياء ، فلم تتمالك أن أخفت وجهها بيدها .. حتى اذا بدأت تستعيد ثقتها ، أحست بشعور الامتنان من أجل تلك اللذة التى تذوقتها .. وقلما يحس الرجال بذلك الشعور ، أما المرأة فان هذا الشعور عادى جدا عندها ! .. ومن ثم فان كاميل لم تلبث ان رفعت يدها عن وجهها ومدت ذراعيها الى حبيبها .. تود أن تطوقه وتضمه الى صدرها !

***

وفى تلك الليلة شربا كأس اللذة حتى الثمالة .. ومنذ ذلك الوقت ، أخذت اجتماعاتهما تطول وتمتد حتى اللحظات الاخيرة التى يتبدد فيها ظلام الغرفة ، حين تظهر خيوط النهار الاولى .. فاذا ما انصرف العشيق ، بقيت كاميل وحدها مسهدة حتى الصباح ، ثم لاتلبث ست ساعات من النوم أن تعوضها عن تعبها . وعندما كانت تتنبه الى عودة النشاط ، كانت تغادر حجرتها لتتناول الطعام .. وفى غير اضطراب ، كانت تقدم جبهتها الى والدها ليطبع عليها قبلة الابوة ، وهى التى كانت تتلقى ــ منذ ساعات قليلة ــ قبلات من نوع آخر ! .. فما أسهل على المرأة أن تفتح لنفسها كنوزا من الرياء والخداع فى سبيل كتمان حبها !

على أنها شعرت بالاضطراب فى ذات يوم ، اذ قال لها فيه والدها : « أتعرفين ان عاشقك قد عاد ؟ » .. على انها سرعان ماتمالكت نفسها ، وقالت : « أى عاشق ؟ .. لعله المسيو هنرى ؟ »

ــ لا ، ولكنه « لارتيج » الصغير ، ابن أخ لارتيج التاجر ، اذ رأيته اليوم عند باب المتجر، وقد أصبح شابا .. ما أسرع مرور الايام !

وعادت الطمأنينة الى قلبها ، فراحت تتحدث الى والدها عن الماضى بلطف . ولا شك فى أن الطبيب « جوفر » ما كان ليستطيع ــ لو أن بادرة من الريبة داخلته ــ ان يقرأ شيئا فى عينيها الهادئتين ، وفى ذلك السكون المرتسم على وجهها .. ومع ذلك ، فمن أين كانت الريبة تواتيه ؟ .. ان الضابط الشاب لم يكن يجتمع بكاميل ــ منذ تعرف الى الاسرة ــ الا والطبيب ثالثهما .. ولم يكن « جياكوميتى » يخاطب الفتاة ــ أثناء تلك الزيارات ــ بل كان ينهمك فى الحديث مع الطبيب فى موضوعات فلسفية . واذا قيل أن « جوفر » كان يتغيب عن منزله أثناء النهار ، وهى فرصة كافية لأن تتصل كاميل بجارها ، لانهار هذا القول من تلقاء ذاته، اذ كان كل انسان يعلم أن الضابط يسافر فى فجر كل يوم ــ مع بعض مساعديه ــ ليقوم بمهام عمله ، فلا يعود قبل المساء .

وكل امرأة متزوجة ، لا تملك أن تنكر ان تفكيرها ــ فى خلال الاسابيع الاولى للزواج ــ لايكاد يتجاوز زوجها ، فان التذكار والانتظار يشغلان بالها طيلة يومها ! .. ذلك لان نظرة كل جنس الى الحب تختلف عن نظرة الجنس الآخر ، فالرجل يقضى نصف شبابه فى السعى وراء الحب والظفر به ، أما المرأة فانها بعد أن تقضى سنوات طويلة فى جهل مظلم، تنتقل فجأة الى اكتشاف السر فى عشر دقائق .. ومن هنا ينحصر كل تفكيرها فى عواطفها ! .. وما يصدق على الحب المشروع ، ينطبق على الحب غير المشروع . بل أن طبيعة المرأة تظهر على حقيقتها فى الحالة الثانية ، أكثر من ظهورها فى الحالة الاولى . لان الارادة تتيح مجالا أوسع للحركة

والعمل .. وقد كان اهتمام كاميل بكشف حقيقة الحب يملأ روحها - فى تلك الفترة التى كانت تسلم نفسها فيها لجياكوميتى .. بل أن هذا الاهتمام أخذ يملأ نفسها باستمرار ، أما الخوف من الفضيحة واحتمال مفاجأة أحد لها ، فكان يأتى فى المقام الثانى ، لاسيما بعد الذى لمسته فى حبيبها من القوة والذكاء .

وكان يخيل اليها ان ليس فى مقدور أحد أن يقاوم هذا الرجل أو يتغلب عليه .. ولما كان الطبيب قد شفى - فى تلك الاثناء - من اوجاع قدميه ، وأصبح قادرا على السير بسهولة ، فقد بات وقع قدميه - وهو يسير ذهابا وايابا فى غرفته التى كان يترك بابها مفتوحا - يصل الى مسامع كاميل .. ومن ثم بدأت تشعر تدريجيا بشىء من الخوف للخطر الذى قد تتعرض له مع حبيبها ، وأصبحا يتحاشيان الكلام حتى لا تسرى همساتهما الى الطبيب .. وهكذا أصبح الصمت يسود لقاءاتهما ، بل أن قبلاتهما باتت صامتة ، مما جعل لغرامهما طابعا ومذاقا غريبين !

وكأنما كان يطيب لجياكوميتى أن يلعب بعواطف «كاميل» ، وأن يزيدها شعورا بالخطر ، فكان يطفىء النور ، ويفتح النافذة ثم يسير بها اليها ، ويتكىء الى حافتها والفتاة الى جانبه .. وكان شعاع واهن من القمر يشق حجب الظلام احيانا ، فيستهوى منظر الطبيعة الجميلة مشاعر كاميل .. وحدث - فى عدة مرات - أن كانا يسمعان حركة بين أغصان الاشجار ، بل لقد خيل اليهما مرة أن شبحا آدميا يتحرك فى شرفة المنزل ، ويختبىء بالقرب من حاجزها .. وكانت كاميل - فى هذه الحالة - تفزع الى عشيقها ، وتتعلق به ، وترجوه أن يغلق النافذة ويدخل ليختبىء فى الحجرة .. ولكن جياكوميتى لم يكن يتحرك من مكانه ، بل كان يواصل

استجلاء جمال الطبيعة .. حتى اذا اشتد شعورها بالخطر، وتأثرها بما كان يبعثه المنظر فى النفس ، كانت تلتف بجسمها حول جسمه ـ كما ينساب الثعبان ـ وهى تهمس فى اذنه : « تكلم !.. اواه ، حدثنى !.. اتوسل اليك ! » .. بيد أنه لم يكن يحرك شفتيه المطبقتين . وكان فى بعض الاحيان يشير الى الغرفة المجاورة ، حيث كان والدها الطبيب ينام .. اذ كان أتفه صوت كفيلا بايقاظه من نومه . وهكذا كانت « كاميل » تستسلم ، وتسكت ! .. وكان اضطراب نفسها يذكى لديها الرغبة فى الخلاص من ذلك السر المؤلم ، وفى أن تصبح بالنسبة لجياكوميتى شيئا أفضل من عشيقته وشريكة ملذاته .. كانت تحلم باتحاد بين روحيهما ، وارتباط بين نفسيهما كذلك الارتباط الذى تمكن جسداهما من تحقيقه ، ان لم يكن اشد منه اخلاصا .. وأية امرأة لم تحلم بذلك ، حتى مع عشيق لا تحبه ؟ !

كانت هذه الفترة اشبه بفترة انفصلت عن حياة «كاميل»، وكأنها لم تعشها .. فقد كان الحاضر يغمرها ، حتى انها لم تكن تفكر فى المستقبل ، بل تركت التفكير فيه طوعا .. وكانت الايام والليالى تعدو هربا . كم مضى من الزمن منذ أصبحت ملكا لذلك الرجل ؟.. أسبوع ، أو شهر ، أو عام؟.. كل شىء يجرفه النسيان !.. وهكذا كان الزمن يمر بها دون أن تشعر به ، لولا أن خطابا تلقته من « مارت » يوما ، فنبهها فجأة ، وفى قسوة ، الى الحقيقة المرة .. اذ أن «مارت» شاءت أن تبر بوعدها ، فأخذت تقص على صديقتها فى الخطاب ـ فى استحياء وصراحة ، فى آن واحد ـ كل ما حدث لها بعد أن اصبحت زوجة ..

ولقد قرأت « كاميل » تلك الاعترافات ، ولكنها لم تشعر بشوق ـ أثناء القراءة ـ بقدر ما شعرت بدهشة ، اذ

استخلصت مما قرأته أن « بول » كان يعامل زوجته « مارت » بنوع من الاحترام المشوب بالحب ، وكان يستهدف الناحية البدنية من الحب عن طريق العاطفة المشتركة ، أي اتحاد القلبين . وهكذا كانت عفة الزوجة الجديدة وحياءها موضع احترام من زوجها الى آخر لحظة ! .. وأثار هذا الخطاب في « كاميل » شعور الكرامة والخجل . والقلب البشري يضم هاتين العاطفتين متحدتين في بعض الاحيان ! .. ومهما يكن من امر شعور عشيقة جياكوميتي — في ذلك الوقت — وسكرتها الفرامية ، فانها عجزت عن التخلص من الجاذبية القوية التي بعد عهدها بها .. جاذبيـة العفة . فان المتعة الحسية لا تلبث أن تبعث السأم ، أما العفة والمتعة الطاهرة ، فتنطوي دائما على راحة مطلقة ..

لذلك شعرت « كاميل » — وهي مستغرقة في استكناه معاني رسالة « مارت » — بأسى على عفافها المفقود . وللمرة الاولى ، سببت لها زلتها شيئا من الالم .. ولكنها سرعان ما استبعدت ذلك الشعور ، اذ كانت تغبط نفسها على سعادتها الحالية ، وتخشى أن تحرم منها .. وكانت كل فكرة تعبر عن الاسف أو الندم تبدو لها عدوا خطيرا ، كفيلا بالقضاء عليها ، وبهدم سعادتها .. ثم ، أي عجب هنـاك اذا كان عشيقها لم يعاملها كما عامل « بول دلكومب » زوجته ، مادام هـذا الاخير كاهنا من رجال الدين ؟.. ان عشيقها كشف لها السر بأوضح مما كشفه بول لزوجته ، وفي هذا فصل الخطاب !

على أن رسالة « مارت » احدثت أثرا آخر .. فقد توقف فكر « كاميل » عند هـذه النقطة : « أن مارت زوجة بول دلكومب ، أما أنا فلست الا عشيقة جياكوميتي ! »

***

عشيقته !.. ابدا لم تظهر لها قسوة الحياة كما ظهرت لها فى ذلك اليوم : بشعة ، مروعة ! .. وبدا لها مركزها الشاذ جليا ، فقد كانت « مارت » تعلن فى خطابها لصديقتها ، أن آل هوك قد اعتزموا العودة الى (تونيان) بعد خمسة عشر يوما .. فماذا يكون من أمرها هى ـ كاميل ـ اذا ما عادوا ؟

وعادت الكلمة تغوص فى قلبها كأنها خنجر حاد .. « عشيقته ! » . ان جياكوميتى خليق بأن يتزوجها ، ولكنها لم تجرؤ ـ طول المدة التى تسلط فيها ذلك الرجل عليها ـ أن تقول له : « تزوجنى! » .. على انه كان لزاما عليها أن تقولها له .. فهو لابد راحل بعد أيام ، ما دام آل هوك قد اعتزموا العودة .. وأخذت تحسب الايام الباقية ، فلم تجد أمامها غير أسبوع واحد .. أى ان شهرا ـ تقريبا ـ قد انقضى منذ فرطت فى عفافها ! .. ومع ذلك فقد كانت تخال ان الليلة التى فاجأها فيها ، لم تكن غير البارحة !

ولكن ، أتصبح زوجة لجياكوميتى ؟ !

وشعرت برجفة تسرى فى جسدها وهى تفكر فى ذلك الامل الذى ملأ أحلامها فى الماضى .. والحق انها كانت تفضل الا يتغير شىء من أوضاع حياتها ، فتستمر تلك الحياة على حالها الى الابد ، دون أن يلحقها تبديل .. مجرد سلسلة طويلة من العناق والقبلات !.. افلم يكن الحب الذى تكنه لجياكوميتى ، معادلا لذلك الحب الذى تشعر به «مارت» من نحو «بول» ؟

وودت أن ترد على هذا السؤال بالايجاب ، خشية أن يسوقها أى جواب آخر الى البحث عن سبب سقوطها ، اذا هى عجزت عن أن تعلله بالحب .. وراحت تردد لنفسها فى

نوع من الايحاء : « سأتزوج جياكوميتى ، وسأتبعه أينما ذهب ! »

وما لبثت الذكريات البعيدة أن أعادت اليها شبح «لويس» .. ترى هل يقدر للويس أن يغدو زوجها يوما ؟ .. لا ، فقد انهار كل ما قاما ببنائه من قصور الآمال الجميلة منذ الصغر .. ترى أين هو الآن ؟.. لا ريب أنه فى مكان بعيد جدا ، بل لعله قد مات ولن تراه الى الابد !

***

وفى نفس اليوم الذى حمل ساعى البريد فى صباحه خطاب « مارت » الى « كاميل » ، حمل اليها فى مسائه خطابا من روكبيكيه .. فان هذا الشاب لم يلبث أن شعر بالسأم والضجر ، شأن جميع أهل الجنوب اذا ما ذهبوا الى باريس.. ولما لم يكن يعرف له مسلاة فى تلك المدينة الواسعة، عاوده الحنين الى (تونيان) ، وتذكر ـ فى حسرة ـ تلك الايام التى كان يقضيها مع اصدقائه الثلاثة : بوريس ، ودسبيرو ، واسكادافال .

وفى ذات مساء ، عاد الى مسكنه ـ بعد أن تنزه على ضفاف السين ـ وقد اشتد به الاسى ، وبرح به الحنين .. وعاودته ذكرى « كاميل » .. وكانت « كاميل » ـ فى نظره ـ أجمل من كل النساء اللائى اعتاد أن يقابلهن فى طرق باريس ، فقد نفره من الباريسيات انهن ذوات جمال مصطنع ! .. وألفى نفسه ـ وقد استقر فى الغرفة التى كان يسكنها ـ مدفوعا الى أن يكتب الى صديقته القديمة خطابا طويلا مؤثرا ، وهو فى اوج جيشان عواطفه .. ولقد عجبت « كاميل » من أمر هذا الخطاب، وان لم يؤثر فيها ما تضمنه، اذ كانت قد نسيت « روكبيكيه » ، حتى لقد بذلت جهدا

لكى تتذكر شكله ووجهه ، الى ان استطاعت أن تتمثل ذلك الشاب الخجول ، الغريب الاطوار ، الذى لم يكن يجرؤ على لمسها فى الماضى .. وقارنته بجياكوميتى فازدادت اعجابا بهذا الاخير ، لقوة أعصابه وجرأته عندما فاجأها باعتدائه .. فان النساء - مهما تكن أعمارهن - يشعرن بالاحترام نحو الرجل الذى ينتقص من أقدارهن .. ولكنهن - اذا كن صغيرات السن - يخلن عن خطأ ان هذا الذى يبدر منه انما هو الحب !

وفى ذلك المساء ، أبدت كاميل لجياكوميتى - عندما التقت به - أقصى آيات الحب . وراحت تلقى اليه بالعهود ، بصوت مختنق ، وتردد فى عاطفة جياشة : « اننى أحبك .. أواه ، لكم أحبك ! » .. وأردفت ، للمرة الاولى ، متسائلة : « ولكن هل تحبنى أنت ؟ .. أحبنى ! »

الا أن جياكوميتى ظل على صمته ، ولم تستطع هى ، ولا دموعها المتساقطة ، أن تنتزع منه ذلك الجواب الذى كانت تصبو الى أن تسمعه : « نعم ! اننى أحبك ! » .. بل انها لم تلبث ان كفت عن الالحاح ، وقد أحست بذعر لتلك السخرية التى كانت تتجلى فى عينى الرجل .. كانت عيناه ترسلان اليها نظرات غريبة ، وكأنهما تستطيبان مرأى اضطرابها ، كما تتمتعان بمنظرها الجميل .

وعندما خلت الى نفسها - فى تلك الليلة - راحت تقول : « لم أتمكن من أن أقول له : تزوجنى ، وأسرع يطلب يدى من والدى ، فان موعد رحيلك يقترب ! » .. كلا ، لم تتمكن .. بل انها لم تجرؤ على ذلك ! .. وخيل اليها أنها لن تجد الشجاعة الكافية لان تقول له ذلك ، فى أى يوم من الايام .. ولكن حادثا وقع فبث الشجاعة فى قلبها ، اذ انتبهت الى تطور فى صحتها ، عرفت معناه برغم جهلها بعلم وظائف

الاعضاء .. ولكم أرعبها ذلك الاكتشاف ! .. وأصبح لزاما عليها أن تتكلم ، وبأسرع ما يمكن ! .. وصممت على أن تتكلم فى تلك الليلة نفسها . وحققت عزمها فعلا ، فكانت الكلمات الاولى التى قالتها لجياكوميتى ، حين قفز الى غرفتها – فى ذلك المساء – هى : « ان فى أحشائى جنينا .. يجب أن تتزوجنى ! .. لقد حان الوقت لذلك ! »

ورفعت رأسها – وهى تقول له ذلك – وتجرأت فى هذه المرة على أن تنظر الى وجهه ، على شعاع واهن ، فلاحظت أن عضلة واحدة فى وجه الضابط لم تختلج .. ومكث فترة مخلدا الى التفكير ، ثم قال لها : « لا بأس .. اتركى لى الامر ! »

وجذبها اليه دون أن يتيح لها وقتا كافيا للحديث ، وانهال عليها عناقا ، وكأنه يريد أن يغتصبها مرة ثانية .. ولكم كان عناقه مؤلما ، عنيفا ، فى تلك الليلة ، حتى لقد ظلت آثاره تؤلم « كاميل » مدة طويلة ، بعد أن قفز من النافذة الى الحديقة، عائدا الى منزله ، فى جنح الظلام !

***

وفى اليوم التالى وجد الدكتور « جوفر » فى صندوق خطاباته بطاقة بتاريخ اليوم السابق، جاء فيها : « ان الضابط جياكوميتى قد استدعى تلغرافيا الى باريس ، وهو يرجو الطبيب جوفر أن يقبل شكره العظيم على الحفاوة الودية التى لقيها فى المنزل المنعزل ، واعتذاره لاضطراره الى السفر فجأة » .

وقدم « جوفر » البطاقة لابنته – عند نزولها الى الحديقة، حوالى الساعة الحادية عشر صباحا كعادتها – وهو يقول : « أن رسالته غامضة ، لاتفصح عما اذا كان يقصد انه سيعود ثانية أم لا ! »

وأمسكت كاميل بالبطاقة ، وتفرست تلك الكلمات القليلة، وهى لاتفهم شيئا منها .. وخيل اليها ان عقلها قد تناثر كالرماد فى مهب الريح ، وشعرت بأن قواها تخونها ، فلم تقل شيئا ، بل وضعت البطاقة على المائدة ، ثم عادت الى غرفتها ، تاركة الطبيب يتمشى فى الحديقة ...

وفى غرفتها ، ارتمت على مقعد وقد بدأ الاغماء يغالبها .. وتولاها شعور أثقل قلبها ، وأحست كأن ريحا عاتية تهب فى أذنيها، وبرقا خاطفا راح يلمع أمام عينيها..وما لبث كل ذلك أن تحول الى أشباح راحت تمر بسرعة أمام عينيها .. وأخذ شعور « كاميل » بالوحدة يتزايد فى أعماقها ، حتى كاد يفيض .. ثم أخذ فى الانحسار تدريجا ، وسكتت الاصوات التى كانت تهب فى أذنيها ، وخبا البرق الذى كان يتوالى أمام عينيها ، ووجدت نفسها جالسة فى مقعدها ، وقد أخذ العرق البارد ينصب على جبهتها .. وأحست بأنها ضعيفة ، ولكنها أحست ــ فى الوقت ذاته ــ بأنها قد تمالكت كل شعورها .

وخيل اليها ــ فى تلك اللحظة ــ أنها لم تر الاشياء التى كانت تحيط بها ، أوضح مما أخذت تراها اذ ذاك .. وأجالت بصرها فى كل ما كانت تضمه غرفتها ، ثم قالت لنفسها : « لقد كان هنا فى الليلة المنصرمة ! » .. كانت الفوضى ــ التى شاعت فى الغرفة ــ شاهدا على ذلك ! .. وراحت تحدث نفسها قائلة : « اذن فقد انتهى الامر ، وسافر ! .. سافر دون أن يودعنى ، وهو يعلم أن هناك جنينا فى أحشائى !.. كلا ، هذا مستحيل ، فما أحسب ان أى رجل شرير يبلغ به الجبن الى حد أن يرتكب عملا كهذا ! » .. ولكنها لم تلبث ان استدركت : « بل نعم ، هذا صحيح ! .. انه يحدث .. يحدث فى كل يوم ، وتنشر الصحف أخباره كل يوم .. ان

هذا يحدث فى باريس ، بل هنا فى (تونيان) أيضـا ، بين الطبقات الدنيا .. واولئك المخدوعات المهجورات يطلق عليهن اسم « الأمهات العذارى » .. عذراء وأم فى وقت واحد !.. ولكن هذا لا يحدث الا بين الطبقات الدنيا الفقيرة ! »

تم اعتمدت رأسها بين كفيها، واستطردت تحدث نفسها : « أجل ، بين الطبقات الدنيا ، الفقيرة فقط ! .. ولعل مرجع ذلك هو أن فتاة الطبقة الراقية لا تتصل بأحد ، فمارت ـ مثلا ـ لم تحب أحدا قبل أن تتزوج ، و «برت» و «مارى» ، ليس لأى منهما عشيق .. انما بنات العامة فقط ـ من أمثال ارما ـ هن اللاتى يعتدى الفلاحون على عفافهن ، فى الاماكن الخلوية .. ثم يترك الفلاح الفتاة منهن، ويهجرها وطفلها ! »

***

اذ ذاك فقط ، تمزق الحجـاب عن تلك الليلة التى ظلت تحيا فى نعيمها منذ خمسة أسابيع ، وعرفت أن سقطتهـا كانت حادثا غير لائق بها ، وانها سـلكت مسلك الفـلاحات الفقيرات ، وان « جياكوميتى » عاملها كما لو كانت واحدة من هؤلاء .. وهاهوذا قد هجرها ، كما كان خليقا بأن يهجر أية فلاحة بائسة فى وضعها ! .. وتذكرت ـ اذ ذاك ـ امرأة كانت قـد ترددت على المنزل أثناء غيـاب الدكتور جوفر ، وكانت تتلهف الى استشارته ، وهى تظن أنها تحمل طفـلا فى أحشائها . ولقد استقبلت « كاميل » تلك المرأة بنفسها ـ لغياب والدها ـ فروت لها البائسة قصة نكبتها ، وقالت وهى تبكى : « .. ولقد هجرنى بعد أن قضى وطره ! »

ولكم أحست بالرعب حين خطر ببالها أنها هى الاخـرى كانت مجرد وسيلة لتحقيق لذة ذلك الوغد ! .. وما أقسى الحزن الذى سببته لها هذه الفكرة ، فراحت تذرف الدمع سخينا .. على انها لم تلبث أن اعادت النظام الى فراشها ،

ثم رمت تحته بالغطاء الصوفى ، حتى تخفيه عن عينيها .. وتأملت شكلها فى المرآة ! .. كان من العسير أن يرى أحد فيها شكل « كاميل » المعهود ، اذ شحب وجهها فبدا أبيض ، كما حفرت الدموع اخدودين على خديها .. واستولى عليها الخوف من والدها .. آه ، لو انه لاحظ أى شىء ! .. بل آه ، لو ساوره مجرد الشك !

وأخذ ذلك الاحتمال - الذى لم يمر بخاطرها حتى الامس - يزعجها بعد أن رحل « جيروم جياكوميتى » .. ان جوفر سيقتلها - بكل تأكيد - لو انه عرف شيئا مما حدث !

وغسلت وجهها بعناية ، وأصلحت من شعرها ، وحاولت أن تبدو بمظهرها العادى . ثم فتحت النافذة لتتسرب منها حرارة الظهيرة فتعيد لون وجهها الى ما كان عليه ، وحاولت - فى نفس الوقت - أن تدرس الموقف فى شىء من الثبات .. فهل ضاع كل أمل ؟ .. ألا يحتمل أن يكون « جياكوميتى » قد استلم فعلا برقية فى الساعة السابعة صباحا ، تستدعيه الى باريس ؟ .. أليس رجال الجيش معرضون لتلقى مثل هذه الاوامر ؟ .. اذن ، فقد كان مجبرا على أن يسافر ، فكيف كان بوسعه أن ينبىء عشيقته بذلك ؟

وقالت لنفسها : « اذن فلن يلبث أن يعود ثانية ، فى بحر أسبوع على الاكثر .. أو أنه قد يتمكن من اخطارى عن موعد عودته بكلمة قصيرة ، تعيننى على وطأة الانتظار » ..

ولما لحقت بوالدها - عندما أعدت المائدة - كانت قد استعادت هدوءها تقريبا ، وقد أنساها خوفها البالغ منه حزنها وقلقها .. غير أن جوفر لم يعدم ان لاحظ بعض الشحوب على وجهها ، فقال لها : « انك لاتتنزهين كثيرا منذ رحيل آل هوك .. فجدير بك أن تصحبينى من وقت الى آخر فى جولاتى .. مارأيك فى الخروج معى بعد ظهر اليوم ؟ »

.. ووافقت كاميل ، اذ كانت تفضل القيام بأى شىء على أن تنفرد بأفكارها .. الا أنها خشيت أمرا واحدا بعث الرعب الى نفسها .. ألم تكن هناك مظاهر خارجية يمكن أن تفضح حالتها الصحية ؟.. ألا يحتمل أن ينم وجهها ـ مثلا ـ عن سرها ؟ .. ورأت ان لابد لها من التثبت من ذلك ، فاقتربت من الطبيب ، ونظرت فى عينيه كأنها تود أن تفسح له الفرصة ليلمح أى تغير يثير الشك فى نفسه . ولكن الدكتور «جوفر» لم يفطن الى شىء ما !

وخرجا بعد تناول الطعام ، لكى يعود الطبيب مريضا فى الريف .. وفى العربة التى أقلتهما ، أسندت كاميل جبهتها الى كتف أبيها ، الذى انتبه الى مابها من ضيق واكتئاب ، فأخذ يدللها ويظهر لها حبه .. ذلك الحب النادر العميق الذى كان كفيلا بشفاء قلب الفتاة .. والذى قلما كانت تحظى به !

وشيئا فشيئا ، أخذت « كاميل » تحاول اخفاء سرها المشين فى ثنايا شعورها بما يتيحه لها أبوها من حمى وأمن ، وبما يثيره فى نفسها من خوف .. فقد كانت تخشاه وتعبده فى آن واحد .. ولم تلبث أن نسيت أساها ، وأخذت تتأمل ـ بعينيها الواسعتين ـ ذلك الريف الجميل الذى كان يحيط بها ، وقد غمرته شمس الصيف !

(٥)

ان الألم الحاد اذا بلغ حدا معينا ، أورث صاحبه عدم الاحساس به ! .. وكذلك الحزن اذا جاوز الحد المحتمل ، لم تعد النفس تشعر به ! .. ولم تكن « كاميل » تواجه مانزل بها الا بقلب متوسط القوة ، أثقلته العواطف المتضاربة .. وشعرت بأن ذكاءها أقل بكثير من أن يواجه المستقبل

وما يحمله من تهديد ، فآثرت أن تترك الامور تسير فى مجراها العادى ..

وفى تلك الايام التى تلت فرار الضابط - بعد أن سلبها عفافها - راحت تعيش - نهارها - بلا فكر ولا ارادة . ولكن هذا الليل - الذى عاشت فيه مشاعرها - لم يلبث أن انقشع ، وتمكنت فى ضوء الفجر - الذى بزغ على حواسها مرة أخرى - أن تنظر الى أعماق قلبها ، فخيل اليها انه لم تبق فيه عاطفة واحدة ! .. كانت صورة « جياكوميتى » قد انمحت من نفسها ، فلم تعد تشعر نحوه برغبة ولا ببغضاء ، حتى لقد بلغ من نسيانها اياه ، أن خيل اليها انه لم يكن الا حلما فى حياتها !

أفحقا كانت هى نفس الفتاة التى قالت لنفسها - قبل أيام قليلة - وهى تفكر فيه : « اننى أعبده ! » .. والتى كانت تحلم بأن ترتبط حياتها بحياته ؟ ! .. أو ترى أن الألم خلق لها قلبا جديدا ؟ .. وكانت كلما فكرت فيما حدث ، والخوف يملأ قلبها ، وهى تردد لنفسها : « لقد دنس شرفى » ، لاتلبث ان تفكر فجأة فى احتمال عودته ، فينكمش قلبها . ولو انها استطاعت قراءة نفسها الباطنة ، لأدركت انها كانت تشك فى عودته ، برغم أن تلك العودة كانت الوسيلة الوحيدة لخلاصها من العار الابدى !.. والحق أنها كانت تشعر دائما بالخوف من جياكوميتى .. كانت حواسها - التى اشتركت فى الجريمة - قد تلقت المفاجأة الاولى من الضابط ، مصحوبة بقسوة لذت لها ، ولذا أحبت تلك اليد التى أذلتها .. أما روح الخوف فكانت قد ماتت !

على ان ركنا قصيا من نفسها ، ظل محتفظا بفطرته الناعمة .. الركن الذى انطبعت فيه صورة « لويس » !

أما وقد تحطم الحسد ، فان الأحاسيس المادية لم تلبث ان خمدت ! .. وبدأت تدب فى أعماقها رغبة جديدة ، بعثها

الهدوء الذى أحاط بكاميل ، وخمود فورات الجسد .. رغبة فى الخلاص من الذكرى الاليمة !

وكان شهر أكتوبر قد بدأ ، فبدأ معه الخريف .. (يعرف الكاتب جوا أهدأ من تلك البقعة من فرنسا فى ذلك الفصل ، ولا سماء أقوى على شفاء النفوس من سمائها .. هناك ينام الالم ، وينمحى القلق ! .. وهكذا أخذت «كاميل» تتمتع بجو مسقط رأسها ، دون أن تفطن ، فعاودها الهدوء، وكأنها لم تعد تهتم بشىء ، وقد كادت تنسى عار ماضيها ، وما يصحبه من تهديد مسلط فوق مستقبلها .

وفى تلك الظروف ، عادت أسرة هوك الى مدينة (تونيان) ، وقد تأخرت قليلا عن الموعد الذى حددته من قبل .. وكان بول دلكومب قد عين رسميا فى المدينة ، وقد اعتزم أن يتخذ له — ولزوجته — منزلا خاصا جديدا .. وهكذا كان مقدرا أن يخلو « منزل الغابة العذراء » من السكان مرة أخرى ، اذ ان القس « هوك » لم يكن يعتزم البقاء فى (تونيان) — بعد أن خلفه صهره فيها — سوى المدة الكافية لاعداد منزل « بول » الجديد للسكنى .

وكانت « كاميل » مضطرة — فى بادىء الامر — الى أن تجيب الاناث الاربع عن أسئلتهن الكثيرة عن الضابط جياكوميتى ، فراحت تبذل مجهودا كبيرا فى ذلك ، اذ كانت كل كلمة تسمعها منهن عن الرجل ، تنكأ فى نفسها ذلك الجرح الذى كان قد أوشك أن يندمل .. على ان فضولهن لم يلبث أن انتهى تدريجا فتحولن عن هذا الموضوع .. وعادت كاميل الى عادتها القديمة فى ملازمة مدام هوك وبرت ومارى ، بل انها أصبحت أشد حرصا على صحبة الفتاتين ، وكأنها أرادت بمرافقتهما أن تغتسل فى ماء طاهر ، أو أن

تجدد من قوة قلبها البائس ! .. وبدا لها — على مر الايام — انها نسيت أصول ذلك العلم الذى تلقته على يد عشيقها ، فكانت تستطيب أن ترى نفسها بصحبة هاتين العذراوين ، حتى تبدو عذراء طاهرة مثلهما !

***

لكم كان ذلك الغرام القاسى — الذى اعترض حياتها — حلما جميلا ، ولكنه مروع ! .. واستطاعت ان تقضى أياما كاملة لا تفكر فيه .. بيد أن ذكراه لم تلبث ان عاودتها بشدة ، فملأتها هما ، وامتصت تورد وجهها ، وحملتها على أن تردد لنفسها : « اذا كنت أحمل جنينا فى أحشائى، فماذا تكون العاقبة ؟ » .. ذلك لأنها كانت — حتى ذاك الحين — تؤثر أن ترتاب فى انها حامل ، تهربا من رهبة الموضوع !

وانتهزت فرصة غياب الطبيب عن المنزل ، فأقبلت على كتبه للمرة الاولى، وقد تصبب العرق على وجهها، واضطرب جسمها .. ووضعت يدها على الموسوعات الخاصة بأمراض النساء ، وراحت تقلب صفحاتها ، وهى تحاول أن تتعرف على البوادر التى تظهر على المرأة اذا كانت حبلى .. ولكنها أخفقت فى محاولتها ، لغموض التعبيرات العلمية بالنسبة لجهلها .. كل ما أمكنها أن تصل اليه — بعد الذى قرأته — هو أن الاساس الذى بنت عليه ظنها لم يكن صحيحا ، وان شهورا طويلة قد تمضى دون أن تتجلى لها الحقيقة ..

وساعد على التخفيف من قلقها ما كانت تعرف عن والدها من دقة ، فهو — بالرغم من دقته هذه — لم يلاحظ عليها شيئا ، بل ظل دائم الاعجاب بصحتها ، وكانت برت ومارى تشاطرانه هذا الاعجاب .. أما مدام هوك ، فكانت الوحيدة التى كان القلق يتولاها ، كلما انفردت بالفتاة ! .. وكان هذا

القلق يذهب بها أحيانا الى درجة أن تهم بمفاتحة «كاميل» به ، ولكنها كانت تمسك لسانها ـ فى اللحظة الاخيرة ـ مترددة ..

وبدأت المرأتان ـ مدام هوك وكاميل ـ تشعران بالضيق والحرج كلما اجتمعتا معا ، حتى انتهى الامر بأن أخذتا تتحاشيان أن تجتمعا على حدة ، بنجوة من القوم .. بل ان منظر مدام هوك أصبح يثقل على « كاميل » ويزعجها . حتى مع وجود برت ومارى أو غيرهما من أعضاء الاسرتين .. ولذلك فانها ـ على الرغم من الحزن الذى شعرت به كاميل لفراق الاسرة الصديقة ـ أحست بالخلاص والراحة عند رحيلها أخيرا عن (تونيان) !

وعادت كاميل ـ بعد ان أصبحت بلا أنيس سوى والدها ـ الى نظام حياتها السابق دون مجهود كبير .. فكانت تستيقظ متأخرة ، فى كل صباح ، وتصحب والدها ـ بعد ظهر كل يوم تقريبا ـ فى جولاته ، وتتحاشى اختراق وسط المدينة ، لاسيما المكان الذى كان متجر « لارتيج » يقوم فيه ، اذ كان لارتيج الشاب يحدق فيها بجرأة غريبة .. وأصبحت تجد متعة فى أن تنطلق بالعربة فى الريف الجميل ، حيث كان الهواء يداعب أوراق الاشجار !

وأخذت الايام تمر .. واقترب الموعد الذى كانت «كاميل» قد توقعت أن تستطيع عنده التأكد من الحقيقة ، فتعرف ما اذا كانت حاملا ، أم لا .. فان الطبيعة وهبت الانثى أمارات تعاودها فى مواعيد معينة من كل شهر ، وتساعدها على البت فى مثل هذا الامر .. وكانت « كاميل » ترتقب هذا الموعد بقلب واجف ، وتقول لنفسها : « اذا تغيرت أمارات الطبيعة ـ فى هذه المرة ـ فسأصبح معرضة للهلاك ! »

وحل اليوم الموعود ، الذى كانت ترقبه فى خوف ولهفة

.. وراقبت نفسها طيلة النهار ، ثم طيلة الليل ، دون ما بادرة تطمئنها .. ما كان أقساها من ساعات تلك التى مرت بها ، دون أن تقوى على أن تبوح بسرها لأحد !

ومر يومان وهى نهب للأمل الواهن واليأس القاتل، تصور لنفسها — فى فزع — موقف أبيها يوم ينكشف عارها ، وتقول لنفسها : « لسوف يقتلنى ! »

ولم تحاول أن تعلل لنفسها سبب ذلك الخوف العظيم الذى كانت تشعر به من ناحية والدها ، مع أنه لم يظهر لها طول حياته سوى العطف الشديد .. وأخذت تتصوره وهو فى سورة غضبه ، مع أنها لم تره فى يوم من الايام الا هادئا رزينا .. وكان الخوف القاتل يعتصر قلبها، والحيرة تعصف بعقلها .. وفكرت فى الهرب من المنزل ، ولكن الى أين تهرب ؟ .. ثم فكرت فى أن تصارح « مارت » بالحقيقة ، ولكن « مارت » كانت تعيش فى عزلة كما هى عادة حديثى العهد بالزواج ، فلم تعد تراها الا نادرا .. ثم ، ما الذى كانت « مارت » تملك أن تفعله من أجلها ؟

وتحولت تفكر فى الموت !

وراحت تتصور نفسها وهى تهبط — فى بهيم الليل — تلك الدرجات المؤدية الى ضفة النهر ، ثم تلقى بنفسها فى ذلك الفراغ الاسود .. ولكن شبابها مالبث أن ثار ، وأخذ يحتج بشدة ضد هذا الخيال المرعب .. ان الانتحار معناه التشويه الجسدى .. تشويه الجسد من كل أطرافه .. ذلك الجسد البديع الذى كانت تهيم به غراما .. لقد ثار عليها قلبها لمجرد ان تصورته فى حالة الموت وقد دب فيه التلف !

وراحت تتعذب ، وكان النوم قد تعلم كيف يهرب من جفنيها ، فكانت فى أثناء تلك الليالى — التى لا نهاية لها — تفتح نافذتها فى بعض الاحيان، وتتكىء على حافتها .. تتكىء

وحدها الآن ، وقد أخذت تعانى تباريح الذكريات .. ترى هل كان تأثير حالتها الفكرية المضطربة هو الذى جعلها تعتقد — فى أحيان كثيرة — انها رأت وراء سياج الحديقة شبحا ، يشبه ذلك الشيخ الذى رأته هى و « جياكوميتى » ذات مساء ؟ .. وقررت ألا تخبر والدها بشىء من أمر ذلك الشبح ، حتى لا تكشف عن هواجسها وأرقها . وأصبحت — كلما اجتمعت بوالدها — تشده ارادتها ، وتحاول أن تتشبث بشىء من هدوئها الخارجى ، الا أن شحوب وجهها كان ينبىء عن آلامها .. وكان « جوفر » يراقبها بقلق بعد أن لاحظ تغييرا طفيفا على شكلها ، وبعد ان أجابته ، اذ سألها عنه :

— لست أشعر بشىء ياوالدى .. ليس بى شىء البتة .. أؤكد لك ذلك ، فان صحتى على خير حال !

ومر أسبوع .. وفى ليلة الجمعة — التى تلت اليوم الذى تأكدت فيه كاميل من حالتها الصحية — غشى النعاس جفنى الفتاة ، اذ كان جسمها المتعب يطلب الراحة .. وأفادها ذلك النوم كثيرا . فلما استيقظت ، كانت الشمس قد ارتفعت فى كبد السماء ، فأغلقت عينيها ، وظلت فى فراشها مستيقظة دون حراك .. وكانت تغاريد الطيور الصغيرة تتجاوب فى الحديقة ، وباعة الخضر يصيحون فى الشوارع ، و « ارما » قد بدأت تسكب الماء فى الشرفة لكى تنظفها وهى تطلق — من وقت لآخر — تلك الضحكة غير الآدمية !.. حتى اذا كانت الساعة العاشرة ، سمع طرق على الباب الخارجى .. وكان اليوم هو « يوم السوق » ، وقد اعتاد الطبيب أن لايغادر المنزل المنعزل فى هذا اليوم ، فلا بد أن يكون الطارق مريضا أو رسولا من مريض .. وذهبت « ارما » لتفتح الباب ،

وما لبثت ضحكتها أن ترددت فى الردهة ، ثم أعقبها وقع أقدام ..

وبسمعت كاميل ـ وهى نصف نائمة ـ صوت الزائر عندما دخل الى مكتب والدها .. فقد تناهى الصوت اليها ضعيفا جدا ـ فى مبدأ الامر ـ فاستطاعت أن تستبين منه بضع كلمات .. ثم غاب صوت الزائر ، واستمر صوت الطبيب برهة لتعقبه قهقهة حملت « كاميل » على أن تستوى جالسة فى فراشها .. وما لبثت ان سمعت صوت باب غرفة مكتب الطبيب وهو يفتح فجأة ، وصوت « جوفر » وهو يقول : « سأرى .. انها كسول جدا ، كما انها تشعر ببعض التعب فى هذه الايام » .

واقترب الطبيب من غرفة « كاميل » ، وطرق بابها وهو يناديها ، فهتفت مجيبة : « نعم ياوالدى..من الذى حضر ؟ »

ـ انه زائر يريد رؤيتك .. هل استيقظت ؟

ـ نعم ، سألحق بكم فى الحال !

فكرة واحدة جالت بخاطرها ، فاحمرت لها وجنتاها .. لقد خطر لها أن الزائر هو « جياكوميتى » ، وقد عاد بالتأكيد .. وخيل اليها ان الصوت الذى سمعته ـ منذ برهة ـ كان صوته هو .. وأسرعت تقفز من فراشها ، وتناولت ثوبا جميلا كانت أسرة « هوك » كلها قد أشتركت فى اعداده لها ، فأخذت ترتديه كالمحمومة ، وهى تتأمل شكلها فى المرآة ، فلم تر نفسها ـ فى وقت من الاوقات ـ أجمل منها فى هذه المرة ، وزادها حسنا تلك الحرارة التى بعثت الدماء فى خديها ، وتلك النظرة التى انبعثت من عينيها !

***

والآراء تتضارب ـ عادة ـ فى الرأس ، فى لحظات معينة شبيهة بتلك اللحظة التى كانت كاميل تمر بها .. لذلك

راحت الفتاة تسائل نفسها . أى مظهر تتخذ أمام الضابط أتستقبله ببرود ، أم تمد اليه يدها مصافحة ، وتنسى كل ما حدث ما دام قد عاد اليها فى النهاية بمحض اختياره ؟ !

وخرجت من غرفتها وقد نسيت ـ لفرط اضطرابها ـ أن تغيب قدميها فى جوربين ..

وكان الضيف يجلس مع ابيها فى الفرفة الملاصقة لغرفتها، ولا ريب انهما كانافى انتظارها.. ولكنها لم تكد تجتاز الباب ، حتى تلقت صدمة كاد قلبها يقف من قسوتها .. فقد أخذت عيناها تبحثان عن « جياكوميتى » ، ولكنهما لم تجدا الى جانب والدها الا شابا أسود الشعر ، له وجه جميل جدا ، وعينان زرقاوان ثبتهما عليها .. وقال للطبيب وقد أشرق وجهه : « وبعد ، يا كاميل .. ألا تعرفينه ؟ »

ونبهها هذا النداء من غفوتها ، فأنعمت النظر فى الرجل الغريب ، الذى تمتم قائلا : « احقا تغيرت الى هذا الحد؟ » .. كان الصوت الذى نطق بهذه الكلمات ، والنظرة التى انبعثت من عينى الفتاة ، يدلان على انفعال نفسى شديد ، ممتزج بكثير من الرجاء ، والاعجاب ، والتأنيب الرقيق ، مما شق الحجاب المسدل على قلب كاميل ، فتمتمت قائلة : « لويس ؟ ! »

وتقدم منها الشاب ، ومد اليها ذراعيه .. وقال الطبيب : « هيا يا بنى ! .. قبلها كما كنت تفعل فى الماضى ! » .. وجذبها الشاب اليه برفق ، وقد طغى اضطرابه على خجله ، وطبع قبلتين خفيفتين : واحدة على كل من الخدين الاحمرين . وأحست بجسمه وهو يقترب من جسمها ، فابتعدت وقد علا وجهها الشحوب ، وشعرت بشىء من الارتباك ، ثم اندفعت الى ذراعى والدها، لتحتمى بهما وتخفى اضطرابها ..

وبينما كان الطبيب يرفعها اليه ليقبلها ، وقد اشتد فرحه

هو الآخر، سقط أحد نعليها على الارض، وبدت ساقها العارية أشبه بساق تمثال وردى اللون .. بل كالزهرة اذا تفتحت أكمامها !

وحول « لويس » نظره ــ وقد تغلب خجله على ارادته وتظاهره بالهدوء ــ ولم يسعه فى النهاية الا أن يغادر الغرفة، ويتجه نحو الحديقة ، حيث تبعه جوفر ــ بعد لحظة ــ وهو يقول : « انها ذهبت لتستكمل ارتداء ملابسها » .. ثم جذب الشاب من كتفيه ، وألقى عليه نظرة حادة ، غاصت فى عينيه الزرقاوين حتى وصلت الى روحه ، وقال له بلهجة جدية :

ــ يا عزيزى لويس ، آه لو علمت كم أنا سعيد بعودتك .. حقا ، انني اشعر كأن الذى عاد الى بعد أن فقدته زمنا ، هو ولدى فعلا !

وأجاب « لويس لوت » ، وهو يجذب الطبيب اليه ، يطبع قبلة الابن لوالده على جبينه : « وانا الآخر ! .. أنا أيضا لا أقوى على أن أعبر عن فرحى بعودتى الى هنا .. لقد ظلت ذكرى صباى منطبعة بوضوح فى نفسى ، وكان غاية أملى فى الوجود، بل كان محور ذكرياتى كلها ، هو « المنزل المنعزل » وأهله ! .. آه ! هل لك أن تفيض على من حبك يا دكتور لان .. » . واختنق صوته لحظة ، ثم قال : « لان والدى قد ماتا » .

وتناول الثلاثة طعامهم فى ذلك اليوم ، تحت شجرة التين ، وقد شملتهم سعادة جعلتهم كالاطفال . ولم يشعر الطبيب ولا لويس بشىء من الملل ، وهما يطيلان النظر الى كاميل .. وقال لويس : « لقد كبرت يا كاميل .. ما كنت أظن ابدا انها ستكبر حتى تصير بهذا الحجم ! » . فتأملهما الطبيب لحظة ، ثم قال لابنته : « أظنه أكبر حجما منك يا كاميل» .



.. وضمهما الطبيب الى صدره طويلا ، وقد طفر الدمع من عينيه ، وهو الذى ندر أن بكى فى حياته..

(انظر صفحة ١٥٠)

ونهضت الفتاة والشاب عن المائدة ، ووقفا ملتصقين — جنبا الى جنب — ليرى أيهما أكبر حجما من الآخر .. فهتف الطبيب : « يا لله !.. ما اشق الحكم ، فأنتما تكادان أن تكونا متعادلين ! .. على انك يا كاميل تبدين عن كثب أكبر من لويس حجما ! »

وكان لويس يكثر من الاسئلة ، ويقص كل ما تخلل حياته خلال الاعوام التسعة الماضية .. كانت حياة بسيطة تلك التى عاشها ، فمن (مرفيل) الى (باريس) ، الى الكلية .. وقالت كاميل ، تقطع عليه استرساله : « ولكن كان من مساوئك أنك لم تكتب لى خطابا منذ تسع سنوات ! » .. وتضرج وجهها خجلا وهى تقول له ذلك . فألقى عليها لويس نظرة حانية من عينيه الزرقاوين ، وقال :

— من حقك أن تؤنبينى على ذلك، ولكنى وجدت أن الكتابة تضايقك ، فأمسكت عنها !

وابتسمت كاميل وقالت : « آه ! .. لقد كنت طفلة فى ذلك الوقت ! »

وساد الصمت بضع لحظات ، أخذ الدكتور جوفر يغمر الاثنين خلالها بنظرات كلها عطف.. وراحا يستعيدان ذكرى الطفولة العذبة ، التى تمتعا بها بين تلك المناظر الطبيعية التى أحاطت بهما ..

وأحضرت « ارما » — الخادم — القهوة . ونظر اليها « لويس » دون أن يضطرب ، ثم اشاح بنظره الى الافق .. وكان الوقت ظهرا، فى شهر اكتوبر . وقال الشاب بعد برهة: « كل شيء مما يحيط بنا ظل على العهد به ، وكأن شيئا لم يتغير فى بحر الاعوام التسعة الماضية ! » .. ثم نظر الى كاميل، وقال بصوت منخفض : « لم يتغير سوانا .. نحن الاثنان ! »

وعاودتهما الذكريات ، فجزع كل منهما اذ تبين انهما قد

تغيرا بمرور الزمن ، فى حين ظلت الطبيعة كما هى ، لاتتحرك ولا تتغير !

وهنا بدأ لويس يقص عليهما كيف مات والداه .. وكان والده الاسبق ، ثم تبعته والدته التى كان الشاب لا يزال يرتدى ثياب الحداد حزنا عليها ، اذ لم تكن قد انقضت على وفاتها مدة طويلة .. وبدت كاميل مستغرقة فى التفكير لحظات ، ثم ما لبثت أن سألت لويس قائلة : « وذلك الخال الغنى .. هل لا يزال حيا ؟ » .. فأجابها :

ـ لا .. بل مات هو الآخر منذ شهور قليلة ، وهذا دعانى الى رفض قبول منصب حكومى ، فقد أصبحت غنيا ، استطيع أن أعيش معتمدا على ايرادى الخاص ، وسيكون لدى ما يشغلنى بكل تأكيد !

ونظر الى « كاميل » ـ وهو يقول هذه الجملة الاخيرة ـ فرآها تغض النظر بعينيها السوداوين .. واومضت عيناه اذ ظن انها حزنت لما سمعته من أنه أصبح غنيا ، فقد اوحى له انها بذلك تشفق من أن يباعد بينهما الفارق فى الثروة .. وطاب له ذلك ، اذ رأى فيه دليل حبها له ! .. وسأله الدكتور جوفر : « أحسبك ستبقى معنا فترة من الزمن .. أليس كذلك يا بنى ؟ » . فأجاب لويس : « بلى .. وقد حجزت لى غرفة فى فندق اوربا » .. وفكر الطبيب مليا ، ثم قال :

ـ يؤسفنى كثيرا ان أعتذر لك عن عدم استطاعتى ان استضيفك فى منزلى ، فأنت تعلم الشىء الكثير عن عقلية أهل هذه القرى الصغيرة وتفاهة تفكيرهم .. ولكن عدنى أن تتناول طعامك هنا كل يوم ، وأن تعتبر هذا المنزل كمنزلك .

وصافح لويس صديقه القديم ، وهو يقول : « أعدك ! » . ثم أردف :

ـ اليس السبب فى عودتى الى هذه المدينة ، هو رغبتى فى زيارة « المنزل المنعزل » وزيارتكم ؟ !

***

وبعد ظهر ذلك اليوم ، ترك الطبيب الشابين معا ساعات طويلة ، فجلسا فى الشرفة . وكان الجو بديعا .. وأخذت كاميل توجه الى صديقها القديم ألف سؤال عن الماضى الذى فرق بينهما ، وراحت هـذه الاسئلة تتجه تدريجا نحو المسألة الوحيدة التى كانت تهتم بها الفتاة ، وهى ما قد طرأ على قلب لويس طوال مدة ذلك الغياب .. واستجمعت عزمها ـ فى النهاية ـ على أن تسأله صراحة ، فقالت : « كم من الزمن ـ بعد وصولك الى مرفيل ـ ظللت تفكر فى .. صداقتنا ؟ » .. وودت أن تقول : « ظللت تفكر فى » ، ولكنها لم تجرؤ !

وأجاب لويس : « لا تضعى السؤال بهذا الشكل ، والا عجزت عن الاجابة ، وانما قولى : الى متى طال احتفاظك بذكرى حياتنا المشتركة ؟ .. لقد احتفظت بتلك الذكرى طوال مدة الفراق .. واسألى بعد ذلك : هل ظللت ـ طول تلك المدة ـ تحس بنفس المشاعر ؟ .. فأجيبك بصراحة معترفا بأن تأثرى بها كان قصير الاجل .. استمر بضعة اشهر ، حتى اذا اعتقدت اننى اصبحت منسيا ، تألمت أقل مما كنت أتوقع ! »

وهنا ظهر الاسى على وجه كاميل ، فأخذ لويس يدها فى يده ، ولكنه لم يضغط عليها ، وقال :

ـ لا تتهمينى بأننى نسيتك .. صحيح أن فورة الالم لم تلبث أن خمدت ، وأن الاعصاب الثائرة سرعان ما هدأت ، ولكنى أعيد على مسامعك أن الذكرى قد بقيت حية فى قلبى !

وسكت قليلا وهو يفكر فيما كان يريد قوله ، ثم استمر

فى حديثه : « ها انتذى ترين انها مصادفة سعيدة هذه التى فرقت بيننا ! .. فقد كان قلبانا وقتئذ أرق من أن يحتملا ذلك الغرام ، ولا ريب أنهما كانا معرضين للعذاب بسببه .. او هكذا كان قلبى أنا ـ على الاقل ـ اذ كنت عندما افترقنا، مدلها فى الهوى ، شأنى اليوم تماما ! »

ولم تجب كاميل على تلك الكلمات ، فقد كانت متأثرة ومضطربة فى آن واحد ، لانهما تحدثا عن الحب الماضى كما لو أنه كانا عاطفة جدية .. وبدت لهما شخصيتا الطفلين الصغيرين ـ كما كانا اذ ذاك ـ مختلفتين كثيرا عن شخصيتيهما الحاضرتين .. واحسا باضطراب لم يشأ كل منهما أن يبوح به ، بعد أن اتصلت تلك السلسلة المنفصلة من الذكريات التى كانت تربط حاضرهما بماضيهما البعيد .. وقالت كاميل لتقضى على ذلك الحرج الذى ساد بينهما ، حين كفا عن الكلام : « وماذا جرى لصديقك روبير كلاييس ؟.. » . فأومضت عينا لويس دهشة ، وهتف : « ماذا ؟.. اتعرفينه ؟ » .. فقالت ضاحكة : « آه ، ان ذاكرتى أقوى من ذاكرتك ..أبق هنا فسأبحث لك عن شىء .. بل تعال معى ! »

وتبعها الى غرفتها ، وتركته يدخل معها .. يالنزق الانوثة ! .. لقد دخلت ـ فى تلك اللحظة ـ الغرفة المدنسة، وهى رافعة الرأس أكثر منها فى أى وقت آخر ، كأن عودة لويس وحبها الطاهر له ، قد محيا من نفسها كل استحياء من الحاضر ! .. وفتحت أحد أدراجها، فأخرجت منه خطابا أصفر لونه ، وعرضت هذه الفقرة من الخطاب على لويس :

« وهناك عرفت صديقا ، هو أول الفصل ترتيبا ، واسمه روبير كلاييس .. وما أكثر أحاديثنا عنك ! »

وتأثر لويس حتى كاد يبكى .. ولم يجد ما يقوله فى مبدأ الامر، ولكن ما هى الا أن أخذ بيد كاميل فى يده وقبل أطراف أصابعها ، حتى قال : « آه ! كم أنا سعيد لان اسم روبير قد

جدد الذكرى ، فقد .. » . وتردد قليلا ، ثم استطرد يقول : « فقد كان روبير الشخص الذى أوليته من حبى مالم أول أى انسان ، اللهم الا مخلوقا واحدا آخر .. وهو طيب القلب ، حاد الذكاء ، جميل الشكل .. واننى لارجو أن تلتقى به يوما ، فقد وعدنى بالمرور على (تونيان) ، عند سفره الى ايطاليا فى هذا الشتاء .. وكم حدثته عن نهر الجارون ، وعن المنزل المنعزل ، وعنك .. حتى أصبح فى شدة الشوق لرؤية كل هؤلاء ! »

وسألته كاميل : « وهل كان زميلك فى الدراسة العليا ؟ »

ـ كلا .. ولكن ذلك لم يفرق بيننا .. لقد اختار لنفسه ـ فى النهاية ـ دراسة الطب .

ـ وهل يشتغل الآن طبيبا ؟

ـ كلا . .لقد اشتغل بالتدريس فى احدى الكليات مدة من الزمن ، ثم استقال بسبب مشكلات تتصل بوظيفته .. ولما كان غنيا ، فقد أخذ يقضى أوقاته فى السياحة ، وهذه تقريبا هى الحياة التى سأعيشها . اذ أننى ـ منذ توفيت والدتى ـ أجد نفسى فى مثل ظروفه تماما ، فكلانا يكره الوظائف الرسمية كرها عظيما ، وكلانا يحب الدراسة كثيرا ، لولا أن روبير يميل الى الكتابة ، أما أنا فان اللذة التى أجدها فى القراءة تمنعنى دائما من الكتابة !

ونظرت كاميل الى الخطاب الذى كتبه لويس ـ حين كان فى صباه ـ وعلق نظرها باسم روبير كلاييس .. وراحت ترسم فى خيالها صورة لصاحب الاسم ، ثم اندفعت تقول ، وهى تعلم انها تزداد بذلك اقترابا من قلب لويس :

ـ يخيل الى أننى سأحب صديقك كثيرا .

فضغط لويس على يدها ـ التى ظل محتفظا بها فى يديه ـ وقال : « أجل ، يجب أن تحبيه ، فهو رجل كامل ، وهو الرجل الوحيد الذى أقدره الى جانب والدك ! »

***

وعادا الى الحديقة ، فاتكآ معا الى حافة سياجها ، وأخذا يتأملان جمال الطبيعة فى صمت ، وقد امتلأ قلباهما تأثرا بما كان يحيط بهما . . وما لبثت كاميل ان قطعت حبل السكوت قائلة : « ان النساء جميلات جدا فى باريس . . أليس كذلك ؟ » . فأجاب لويس :

ـ بلى . . فى باريس كثيرات من النساء الجميلات ، ولكنى لا أذكر أنى صادفت هناك امرأة فاتنة حقا !

وودت فى تلك اللحظة لو سألته : « وهل أنا أجمل منهن ؟ » . . الا ان حياءها منعها من ذلك . بينما أردف هو مبتسما : « لعلى أقول هذا لأننى كنت أقارنهن جميعا بصورة امرأة منطبعة فى ذاكرتى ، ولا أظن ان جمالا آخر يمكن أن يقارن بجمالها ! » . . وقالت كاميل فى نفسها : « انه يقصدنى أنا ! » . . ولكنها تمنت أن يقول ذلك صراحة . . ولكى تضطره الى التصريح ، سألته جاهدة ألا يبدو تحايلها فى لهجتها : « لاشك انك أسرفت هناك فى الغراميات ؟ »

ـ أسرفت ؟ ! . . لاشك أنك لا تعرفيننى جيدا !

ـ ولكنك على أية حال ، قد أحببت .. واحدة على الاقل ؟

وتردد لويس ، ثم قال بصوت خافت ، كأنه يحدث نفسه :

ـ ان المرء يذكر ماينتاب قلبه ، ولكننى أظن أن تاريخى يسير كما يلى : فى مبدأ حياتى أحببت حبا مبكرا قبل أوانه . . كانت لى عاطفة الرجل ، فى قلب الولد الصغير . . وكان تأثير ذلك كتأثير البذور فى أرض مجدبة ، فما لبث قلبى أن تحطم فترة من الزمن . . ثم جاءت أعوام الدراسة فى الكلية ، فهدأت عاصفة الحب فى قلبى . . فضلا عن اننى أيقنت من أن الطرف الآخر قد نسى أمرى . . وشعرت بشىء من الثورة وأنا أستعيد ذكرياتى ، التى كانت ولا تزال تحتفظ ببهائها . . وعشت قانعا بهذه الذكريات ، الى جانب صداقة

« روبير » ، حتى جاء اليوم الذى وجدت فيه نفسى حرا ..
وقاطعته كاميل قائلة : « وبعد ذلك .. هل أحببت ؟ »
ـ لقد ظننت على الاقل اننى أحب ، ودام ذلك عاما ، وربما أكثر من عام .. وكان من أغرب الظواهر ان الماضى لم يكن أشد تأثيرا على نفسى فى وقت من الاوقات ، منه فى تلك الشهور .. وما أحسب فى وسع أحد أن يفهم حقيقة ذلك ، مالم يجربه بنفسه !

وكان يتوقع أن يسمع كلمة تشجيع من كاميل ، كأن تقول له : « نعم أنا أفهم ذلك ! » .. ولكن الفتاة كانت قد كفت عن الاصغاء لحديثه ، ولم يعد يشغلها سوى شىء واحد هو : ان لويس قد أحب امرأة غيرها !.. ومن ثم عبرت له عن غيرتها بهذه الكلمات التى خرجت من فمها بعناء بالغ : «وهل كانت جميلة ؟ » .. فتردد لويس ، وكأنه فى شك من مقدرته على الاجابة ، ثم قال :
ـ كيف أرد على هذا السؤال ؟ .. من العسير وصف جمالها أو قياسها بدرجات الجمال المألوفة ، ولكنها ـ على أية حال ـ أثرت فى نفسى تأثيرا شديدا .

وتبع ذلك سكون شامل ، لم تكن تعكره سوى ريح خفيفة هبت على الحديقة ، فحركت أغصان الاشجار الجافة .. وأحس الاثنان بقطرات خفيفة من الماء تتساقط ، منذرة بأمطار مقبلة .. وقالت كاميل أخيرا : « ان السماء تمطر ! » .. وسكتت لحظة ، ثم أردفت على الرغم منها : « أحسبك ستتزوجها ولا ريب ؟ »

وتهيأ لويس لمغادرة الحديقة ، وهو يقول : « ان المطر يشتد ، فهيا بنا الى داخل المنزل ، اذا شئت ! » .. وفيما كانا يسيران نحو الدار ، وضع الشاب يده على ذراع كاميل وقال : « لا ، لن اتزوجها .. أما السبب فهو اننى من المؤكد قد اخطأت بحبها ، فهى من النساء اللاتى لايتزوج منهن احد ! »

واشتد المطر فى تلك اللحظة ، وبدأ البرق .. كان مطرا من ذلك النوع الذى يسقط فى نهاية الصيف .. ووقف لويس وكاميل فى ركن من أركان الشرفة ، يشاهدان البرق والمطر ، وعلى شفتى كل منهما كلمات كثيرة ، يود لو يجد لها مخرجا بأية وسيلة من الوسائل ، ولكنه لم يكن يجرؤ على ذلك .. فقد كانا يشعران أن الوقت لم يحن بعد !

وأنقذهما من هذا الحرج عودة الطبيب ، وقد أثقل البلل ثيابه .

وفى ذلك المساء ، ما ان أغلقت الفتاة باب غرفتها ، حتى ألقت بنفسها على فراشها ، وهى لا تزال بملابسها ، وأخفت رأسها بين الوسائد .. كانت فى حاجة الى السكون والظلام، فقد أحست نفسها ثملة . ولكن النشوة لم تلبث أن أخذت تتبدد من رأسها تدريجيا .

وعاد اليها شبح الذكريات المخجلة ، وآلام الحاضر التى كانت قد نسيتها بسبب عودة لويس الفجائية . ورأت الاطياف المرعبة تتحرك حول فراشها ، وتبعث الرغبة فى نفسها من جديد ، وهى تهتف فى فحيح : « ان فى أحشائى جنينا .. اننى حبلى ! » .. كان « الجنين » هو الداء الذى ليس له دواء بالمرة ! .. أيها الاله الاعظم ، أى تأثير أحدثته عودة صديقها القديم على موقفها ! .. لو ان الخطر كان مشهرا من الخارج ، لكان من المحتمل أن تقوى على دفعه ، لكن الخطر ــ الذى كان يتهددها ، من حين الى آخر ــ كان كامنا فى أحشائها ، لا يمكن أن يقضى عليه الا الموت !

وفجأة جلست فى فراشها ، واتكأت على وسادتها ، وهى مفتحة العينين .. واومضت فى رأسها فكرة سريعة ، مثل ذلك البرق الذى كان يخترق حجب السماء من وقت الى آخر .. فكرة اشمأزت منها فى اللحظة التالية ، وأجفلت كما يجفل المرء من النار بعد ان تلسعه . فقد قالت لنفسها :

« لم يمض على ذلك غير شهرين ، ولن تظهر آثار الانتفاخ على جسمى قبل الشهر السابع ! » .. والى أن يحين الشهر السابع ؟ .. هذا ما أثار استنكارها ونفورها !

(٦)

لم يكذب لويس فيما قال ، ففى ثمانية أعوام من التسعة التى غابها ، كان كل ما يشغل المكان الخالى من قلبه ـ بعد حبه لوالديه ـ هو ذكرى « كاميل » وصداقة « روبير كلاييس » .. وكان الحزن لا يزال يغمر روحه ، عندما عاد الى (مرفيل) ، فعاش حينا من الزمن وهو يشعر بالاشمئزاز من كل شيء ، ويتقاعس عن كل نشاط .. وأخذ يستعرض حلقات الماضى بمجرد أن وجد نفسه وحيدا ، وساءل نفسه: ترى هل كان كل ما مر به فى « الغابة العذراء » و « المنزل المنعزل » ، صحيحا ؟ .. وعلاقته بالدكتور جوفر ؟ ! .. وكاميل ؟ ! .. لكم شعر باليأس بسبب ذلك البعاد الطويل الذى كان يفرق بينه وبين كاميل .. ولكم بغض تلك البقعة من الارض التى قيدته فيها سجينا .. باريس التى كانت تختلف كل الاختلاف فى طبيعتها عن طبيعة منطقة (الجارون) العزيزة ، حيث قضى طفولته وصباه ! .. ولقد زاده أسى ـ اذ ذاك ـ ان فهم من صمت كاميل وامتناعها عن مكاتبته، أنها قد نسيته . وظهر له أن العمل هو الملجأ الوحيد فانكب على دراسته ، وكلمات الدكتور « جوفر » لاتزال ترن فى أذنيه : « تعلم وأحب ، فان العلم والحب هما أجمل مافى الحياة ! »

وانه لمدين حقا للعمل والاستذكار ، فقد كان فيهما شفاؤه من العذاب الذى استبد به ، حتى انه دهش لسرعة استعادته هدوءه ، ولاحتفاظه بحبه الشديد للفتاة الغائبة ، على الرغم مما أصابه من ألم بسيط ، وعلى الرغم من إيقانه

بعدم اهتمامها به !.. اجل ، انه لم يحقد عليها ، بل ظلت الصورة العزيزة فى ذاكرته ، وظلت صاحبتها غاية أمله فى الحياة .. وكان يقول لنفسه ملتمسا لها العذر : « انها لاتزال طفلة صغيرة ! » .. وهكذا كانت ذكرى الساعات التى قضاها الى جانبها، غذاء كافيا يكفى قلبه وقتا طويلا .. ذلك لان شخصها كان أعظم ما أحب ، وان لم يشأ ان يعترف بذلك لنفسه !

وكانت صداقته لروبير كلاييس هى البلسم لجراح قلبه، فبرغم ان روبير كان يكبره بأربع سنوات ، الا انه كان زميله فى فرقته الدراسية . وكان يتيم الاب ، تزوجت أمه بعد وفاة والده ، ثم توفيت — بعد زواجها الثانى بمدة بسيطة — فاضطر الصبى للاقامة مع زوج أمه ، ولم يكن يراه الا فى ساعات الطعام .. وكانت هذه الظروف القاسية كفيلة بأن تصقله ، حتى أن لويس كان ينظر اليه كما ينظر الى رجل كامل . وعلى الرغم من اختلاف عمر الزميلين ، الا أن الصلة بينهما توطدت ، ومال روبير الى لويس لرقة قلبه وذكائه وعلمه، كما مال لويس الى روبير لهدوئه وحكمه الصائب وميوله العلمية . وهكذا اكتشف الاثنان أنهما يشتركان فى المشاعر .

وتوثقت تلك الصداقة ، وازدادت الصلات فى ميادين العمل والاستذكار والمستقبل ، حتى توطدت أواصر الاخلاص .. وهكذا قص لويس على صديقه « روبير » قصة غرامه الصبيانى ، فأحسن صديقه تلقى تلك الاعترافات . ومنذ ذلك الوقت ، أخذا يطيلان الحديث عن « كاميل » .. وكان روبير يقول لصديقه لويس : « ما أسعدك اذ تجد من يحبك .. أما أنا فلم تسنح لى هذه الفرصة ! » .. وكان يشجعه على العودة الى مكاتبتها ، ويقول له : « انها قد تكون على

وشك نسيانك ؟ .. وقد يزوجونها ، اذ انها لن تلبث أن تصل قريبا الى سن الزواج ! »

ولكن لويس لم يكتب ، ولعل روح الكبرياء هو الذى منعه عن ذلك .. وكان يعتبر أن من الضعف أن يعاود الاتصال بتلك الفتاة التى لم تعد تفكر فيه .. كان يرى ذلك ضعفا يتناقض مع تعاليم الدكتور جوفر التى ألقاها عليه قبل سفره ، فضلا عما كان يملأ نفسه من الثقة العظيمة فى المستقبل ، وهى ثقة لاتخدع الارواح البريئة .. أرواح الشباب ! .. لذلك كان لويس يقول لنفسه دائما انه سيتصل بكاميل فى المستقبل ، وأنها لا شك تبادله المكانة التى يحفظها لها فى قلبه وحياته .. ولكن روبير ظل يلح عليه بأن يكتب اليها ، ويقول له :

ـ بل اذهب الى هناك فى العطلة .. انها رحلة سهلة .. آه لو كنت فى مكانك ! !

ولكن لويس لم يكن ينعم بتلك الحرية التى كان يتمتع بها صديقه ، اذ كان عليه أن يقضى أحد شهرى العطلة عند خاله الذى لن يلبث أن يرثه ، والذى كان يقيم بالقرب من (مرفيل) . أما الشهر الآخر ، فكان قد اعتاد أن يقضيه مع أبويه ، فى مدينة ساحلية .. وما كانا يسمحان له بأن يقوم وحده بالرحلة الى (تونيان) ، لانه ظل ـ فى نظرهما ـ طفلا .. الى آخر حياة كل منهما .

وكرت الاعوام . فلما مات والد لويس ، نزح الابن مع أمه الى باريس ، وتبعهما روبير .. واشترك الصديقان معا فى دراسة الفلسفة ، ثم افترقا ، اذ اختار روبير دراسة الطب ، بينما آثر صاحبه « لويس » أن يدرس الهندسة ، ولكنهما استمرا على اللقاء كل يوم .. الا أن بعد المسافات فى باريس ، واختلاف دراسة كل من الشابين ـ كما حدث ـ باعدا بينهما .. ثم اضطر كل واحد منهما الى أن يلازم منزله

بسبب ظروفه ، فقد مرضت والدة لويس ، وأحزنها الا تجد زوجها الى جانبها فى هذا المرض . أما روبير ، فقد تعرف الى فتاة تدرس الموسيقى فى المعهد الفنى ، وتعلق بها حتى أنه سكن معها فى منزل واحد ، ولم يعد يفارقها لحظة .

ولما أدرك لويس السنة النهائية من دراسته للهندسة ، ماتت أمه .. وضعضع المصاب حواسه ، ونكأ جراح قلبه ، اذ أحزنه أن يفقد كل من يحب .. وفى ذلك الوقت زادت صلته بروبير ، وأخذ يستمرىء صداقته أكثر من ذى قبل . وأخذ الطبيب الصغير « روبير » يلازم صديقه فى فترة حزنه على أمه ، ويعزيه ، ويواسى جراحه .. حتى اذا انقضت أيام الحداد ، حاول أن يثير اهتمامه بالحياة الخارجية .. تلك الحياة التى كان لويس ينزوى عنها . لذلك سعى الى أن يشركه فى شؤونه الخاصة .. بل لقد قاده الى منزله، حيث لمس لويس فى الفتاة « لوسى مارتيل » ـ صديقة روبير ـ رقة وطيبة جذبتاه اليها .. وقدر فيها اخلاصها لروبير ، اخلاص الزوجة القروية ، كما انها أولته معاملة اخوية . لكن الالم كان لايزال يجيش فى صدر لويس . ووجد فى ذلك الظرف الذى كان يمر به ـ والحزن يملأ نفسه ـ ان دواءه الوحيد هو الحب . وكان روبير يعلم ذلك ، ولكن ما الذى كان يملك أن يفعل لصديقه ؟ .. كان لويس شديد الخجل من النساء ، وما كان يفكر الا فى الحب الشريف ، فلم تفره شهوة الجسد مرة واحدة ، بل ان نصيبها منه دائما كان الاحتقار والاشمئزاز .. وهذا كثير الشيوع بين رجال العلم!

والخطر فى مثل هذه الحالة كامن فى صعوبة الاقدام على التجربة الاولى .. ففى ساعات الفراغ القاسية ـ التى كان لويس يمر بها ـ كان طيف كاميل ـ الذى لم يمح فى نفسه ـ يسيطر عليه بقوة لم يعهدها من قبل ، حتى لقد أوشك على السفر الى (تونيان) أكثر من مرة .. ولم يكن هناك مايمنعه

عن ذلك .. الم يكن حرا ، فضلا عن انه صار غنيا اذ ورث خاله ؟ .. ولكنه مع ذلك ظل يؤجل الرحلة من شهر الى آخر ، اذ أن العودة بعد تسع سنوات ـ لكى يجدد غراما قديما ـ كانت تبدو ضربا من الخيال .. كما ان تلك الحياة « الزوجية » ـ التى كان صديقه روبير يعيشها مع خليلته ـ كانت أشد ايلاما لنفسه ، واثارة لحسرته .. وكم من مرة غادر « لويس » منزل صديقه الطبيب وودعه وهو يقول له : « ما اسعدك ! » . فكان روبير يقول له :

ـ قل هذا بصوت مرتفع ، حتى تسمعك لوسى ، فهى تظن ـ وقد بدأت أظن معها انا الآخر ـ اننى لا أحبها الا بدافع من الرغبة !

ولم يلبث جلده ان وهن .. وعاد الى (تونيان) !

***

روى « لويس » كل هذه اللوعات ـ التى عاناها أثناء مقامه فى باريس ـ لكاميل .. وكانت الفتاة تنصت اليه مأخوذة ، فما خطر لها ـ وهى فى محنتها الاليمة ـ ان « لويس » كان مدلها بهواها الى هذا الحد ولا دار بخلدها ـ وهى تتلمس منقذا من المأزق الذى زج بها « جياكوميتى » فيه ـ انها ستجد لدى لويس كل هذا الحب الذى يضىء ظلمات ضائقتها ، ويفتح أمامها أبواب الامل من جديد !

وقال لويس أخيرا : « هاأنذا قد تغلبت على ما بدا منك من جمود فى الماضى ، وهاأنذا أعيد الحياة الى تلك الساعات ـ التى بدا خلال سنوات الفراق العشر ـ انها قد ماتت .. بل اننى أعيد الحياة الى ألذ ساعات .. الى الساعات التى سلبنى اياها صمتك الطويل ، وعدم استجابتك لرسائلى ! »

والحق انه شعر بسرور عظيم للعودة ، وبلذة عارمة لتلك الحياة التى تجدد عهدها ، وبشماتة المنتقم من ذلك العذاب

الذى عاناه فى سنوات الفراق .. وبدا عليه انه كان يستمرىء طعم السعادة على مهل ، فلم يتعجل النطق بالاعتراف الذى كان يتراقص على شفتيه ، وكأنما أراد أن يفسح للحب فترة يستعيد فيها قوة نموه ، وأن يمهل ذكريات الصبا كى تشغل من قلب الرجل - الذى صار اليه - ما كانت تحتله من قلب الفتى الذى كانه فى الماضى !

وراح يقرأ على وجه « كاميل » معالم محاولة كانت تهم بالقيام بها ، وطيف اهتمام باد ، مما أثار غبطته ، وزاده اعجابا بالفتاة .. ومن الممكن أن نعلل تصرفه بأنه شعر بأن الحب كان فى حاجة الى مزيد من وقدة الشوق ويقين التثبت .. وكان لويس يعرف ان كاميل فكرت فى الزواج منه ، فى الماضى - على الاقل - لانه لم يحط علما بما مرت به من تجارب فى غيابه .. كان يعرف أنها فكرت فى الزواج منه ، ولكنه أراد أن يزيل كل شك من ناحية حبها له ، فآثر التريث !

وكان ذلك التسويف يعذب الفتاة المسكينة ، التى أحست - منذ عودة صديقها - بمعركة قوية تنشب فى نفسها .. معركة أقوى مما كان بوسعها أن تحتمل . وكانت - فى اللحظات الاولى - قد شعرت بأنها انتصرت فى هذه المعركة ، فاستبعدت من خاطرها تلك الفكرة المروعة : فكرة خيانة لويس ، واستدراجه الى الزواج منها ليحميها من عار أمومتها المدنسة غير الشريفة وغير الشرعية .. الا أن الجبن البشرى ما لبث أن استولى على ارادتها دون أن تشعر ، وسيطر عليها ، فأخذت تلتمس لنفسها المعاذير - فى تبرير تلك الجريمة - برغم انها قررت ألا ترتكبها ! .. وكانت تقول فى نفسها : « اذا كان يحبنى حقا ، فسوف يشقى اذا لم يتزوج منى ، فهل من حقى أن أجعله يتعذب ؟ .. وفوق ذلك ،

فأنا لست واثقة تماما ـ حتى الآن ـ مما اذا كان هناك جنينا فى أحشائى حقا ! »

وهكذا ظهرت لها استحالة التفكير فى رفض طلب الزواج منه ، اذا ما تقدم اليها ، لاسيما ان الرفض كان كفيلا باثارة الشك فى نفس والدها الدكتور جوفر ، بلا ريب .. وارتاح قلبها المعذب لفكرة استحالة الرفض ، فقد تبينت انها كانت تحب لويس حقا ، ولم تكن تكذب ، عندما أخذت تقول لنفسها : « اننى أعبده ! » .. فقد كانت تعبد فيه ذكرى الفتاة العذراء التى كانتها ، وكل طفولتها المضاءة بلون الفجر الابيض .. كما كانت تعبد فيه الوسيلة الوحيدة الممكنة للتكفير عن جريمتها ، فقد بدا لها انها عن طريق حبها للويس ومبادلته عواطفه ، تستطيع أن تمحو كل عار ، وتحيل الحاضر ـ الملطخ بالوحل ـ الى ماض نقى ، يسير الى جانب مستقبل شرعى أمين ..

وأخذ ذلك الشعور بالرغبة فى تجديد صفحة الحياة ، يختلط باخلاص مع حبها المستفيض ، حتى أدركت انه لم يعد فى امكانها الاستغناء عن لويس .. وفى نفس الوقت ، اشتد اهتمامها بأمره ، فكانت تقول لنفسها : « ماذا ينتظر لكى يقول لى : أنا أحبك ؟ ! .. أتراه يرتاب فى الحقيقة المؤلمة ؟ » .. وألفت نفسها تفكر فى تلك النظرة الطويلة التى كان لويس يوجهها اليها فى بعض الاحيان ، فيخفق قلبها خشية أن يكون قد حدس سرها .. وكان جوفر يراقب ـ هو الآخر ـ العاشقين الصغيرين ، ويسأل نفسه قائلا : « ما الذى ينتظره لويس لكى يتكلم ؟ ! »

ولكن لويس ، وقد أصبح غنيا ، لم يشأ أن يكون هو البادىء بالاعتراف بالحب ، فقد خيل اليه ان الفارق فى الثروة قد يوحي الى الفتاة بأنه يشتريها !

***

على ان الاعتراف لم يلبث ان جاء ــ من تلقاء ذاته ــ فى نهاية المطاف .. ففى ذات مساء ، تركهما الطبيب وحيدين ، وانصرف لعيادة بعض مرضاه .. فقال لويس لكاميل : « مادام المنزل المجاور خاليا من السكان ، فما الذى يمنعنا من الذهاب لزيارة الغابة العذراء ؟ »

واجتازا السياج الفاصل بين الحديقتين .. ولما كانت حديقة المنزل المجاور قد أهملت منذ أسابيع ، فان الحشائش كانت قد بدأت تنمو فيها من جديد ، بالرغم من تأخر الفصل .. وكم كان غريبا منظر تلك الحشائش المترعرعة الى جانب أوراق الاشجار الذابلة المتساقطة ! .. وكان الهواء لطيفا ، تشوبه بعض البرودة ، كما كانت الاشجار العارية تكشف عن سماء صافية .

وسارا على مهل ، جنبا الى جنب .. ولما كان المطر يتساقط كل ليلة ، فقد أخذت أقدامهما تغوص فى الارض الطرية . ووقفا فى وسط الحديقة ، حيث كانت الاحجار تملأ سطح البحيرة .. وكان المقعد الحجرى قد اختفى ، فتمتم لويس قائلا : « هل تذكرين ياكاميل ؟.. هل تذكرين البلبل ؟ » . فهزت رأسها بالايجاب .. وجالت برأسها فكرة واحدة ، هى أن خطبتهما قد تمت فى نفس ذلك المكان ، فى تلك الايام البعيدة الخالية ، ورغم أنف كل شىء .

الا أن تلك الحديقة المهجورة ، التى تناثرت فيها أوراق الاشجار الميتة ، وذلك النهر الذى كان خرير مائه يصل الى آذانهما ، وذلك الظلام المخيم على جو الخريف .. كل ذلك بعث الحزن الى قلبيهما ، فلم يلبثا ان ارتدا بخطى بطيئة الى المنزل المنعزل ، وقد اشتبكت يداهما ، وراحت أصابع كل منهما تضغط أصابع الآخر بلطف . حتى اذا وصلا الى

غرفة الاستقبال الصغيرة ، ظلا صامتين مدة طويلة .. فهناك على الاقل ـ في تلك الغرفة ـ لم يتغير شيء مما عهداه في الماضى .. ونظر كل منهما للآخر ، ثم فكر فى طريقة يعبر بها عما يريد أن يقول .. فقالت كاميل : « فيم تفكر ؟ »

وكأن لويس قد استيقظ بتأثير هذا السؤال ، فنظر اليها نظرة طاهرة ، كلها حب وعطف ، وقال :

ـ اننى أفكر .. ما أحسبك تحدسين بتاتا فيم أفكر !

فتمتمت قائلة : « اقترب منى وأنا أسر اليك ، فى أذنك ، بما تفكر فيه ! »

واقترب منها وعيناه تقولان لها : « اننى أحبك » ، بوضوح يزيد على وضوح أية لغة أخرى .. وما لبث أن شعر بشفتى كاميل ، وهما تسران فى اذنه قولها :

ـ انك تفكر فى الطريقة التى ودعتك بها عند سفرك .. فيما مضى !

ورفع لويس ذراعه ببطء ، وطوق بها جسم الفتاة ، وهو يقول لها بصوت مختنق النبرات :

ـ هذا حقيقى ! .. هل تذكرين ؟ .. أما أنا فيخيل الى أننى لم أعش منذ ذلك الوقت ، الا بذكرى تلك القبلة !

وأسندت كاميل رأسها الى كتف صديقها .. وفى تلك اللحظة نسيت كل شيء .. كل شيء ما عدا ذلك الحب المنتصر الفائز ، الذى بث فى قلبها حياة جديدة .. وقالت : « وأنا أيضا !.. لقد كان كل شبابى محصورا بين تلك القبلة .. » ، ومدت اليه شفتيها ، فلما أطبق لويس بشفتيه عليهما ، سمعها تهمس متممة جملتها الاخيرة : « .. وبين هذه ! »

القسم الثالث

(١)

عندما أسرعت كاميل ـ وهى ممسكة بيد لويس ـ الى والدها الطبيب ، ليصارحاه بغرامهما ، لم ينتظر الدكتور جوفر حتى يسمع منهما ذلك الاعتراف ، بل فتح ذراعيه توا ، وضم الاثنين الى صدره . فأخيرا ! .. أخيرا قدر لذلك الامل الذى طالما راوده ـ بأن يراهما زوجين ـ أن يتحقق .. وبعد ان رآهما حبيبين ـ فى صغرهما ـ ثم شهد فراقهما، هاهو ذا الامل يتحقق ، وفى نفس المكان الذى ولد فيه الحب بينهما !

وضمهما الطبيب الى صدره طويلا ، وقد طفر الدمع من عينيه ، وهو الذى ندر أن بكى فى حياته ، وتمتم قائلا : «أيها العزيزين ، أيها الابنين العزيزين .. ما أسعدنى اذ عشت حتى أرى هذا اليوم ! »

وكان يعرف أن تلك السعادة التى غمرته ، هى من صنع لويس ، فهو مدين له بها .. لذلك احتجزه بين ذراعيه مدة أطول ، وقد اشتد شعوره نحوه بالحب ، وكأن الشاب من لحمه ودمه .. بل كأنه كان يمت اليه ، أكثر مما كانت كاميل نفسها تمت اليه !

وكان الثلاثة يشعرون بالفرح العظيم لهذا الاجتماع ، فلم يسعهم الا أن يقرروا اختصار جميع الاجراءات التى قد تؤخر الرابطة السعيدة . وكانت كاميل أكثرهم سعادة ، حتى لقد خيل اليها انها تعيش فى عالم الاحلام .. ولعلها كانت تخشى وقوع حادث فجائى يوقظها من ذلك الحلم ، فأرادت أن تعجل بنقله الى الواقع !.. بل انها كانت ـ فعلا ـ

تخشى عودة جياكوميتى – فى هذه الفترة – عودة فجائية ، كما يحدث فى الروايات ، حين يظهر الرجل الثانى فى يوم الزواج بالذات ، فيحول بين الزوجين وبين دخول غرفتهما المشتركة الجديدة !

وقبل توقيع عقد الزواج بيوم واحد ، حضر « روبير كلاييس » الى (تونيان) ، فاستقبله أهل « المنزل المنعزل » استقبالهم صديقا عزيزا يعرفونه منذ عشر سنوات .. وكان روبير من هؤلاء الرجال الذين يفوزون بمحبة الناس لهم بسهولة ، نظرا لطيبته البالغة .. ولكم أطال النظر الى « كاميل » ، حتى اضطربت تحت وقع نظرته المتفحصة ، الثاقبة .. نظرة الخبير الذى يسأل نفسه : « هل هذه هى المرأة التى يمكن أن تسعده حقا ؟ ! » .. على ان عواطف الشاب سرعان ما اتجهت الى الدكتور جوفر ، بدافع من ذلك الحب المنطوى على التوقير ، الذى كان لويس يكنه للطبيب.

وقامت بعض صعوبات عند توقيع عقد الزواج ، اذ رفض لويس أن يقبل صداق زوجته .. وانضم اليه صديقه روبير فى معارضة الطبيب فى هذا الامر ، وقال يخاطبه : « أى نفع يعود على هذا الفتى باستيلائه على هذا المنزل البعيد ، فى هذه المدينة المتطرفة ؟ .. وهل يزيد من سعادته أن يستولى على بضعة آلاف من الفرنكات ، قد تحتاج اليها أنت ياعزيزى الدكتور جوفر حين تتقدم بك السن ، وتصبح غير قادر على العمل .. انك تؤمنه على سعادته بمنحه يد ابنتك ، وهو يجد فى هذا الكفاية .. وانه لعلى حق ! »

وأخيرا تم الاتفاق على الاسس الآتية : يعترف لويس لزوجته بملكيتها لمبلغ مائة ألف فرنك . أما الطبيب جوفر فيهدى لابنته كاميل منزل « آل هوك » ، الذى اشتراه من أصحابه ، اذ ان الزوجين رغبا – بفكرة مشتركة أذكتها ذكرياتهما – فى أن يجعلا من « الغابة العذراء » مقاما لهما فى

الاشهر التى يقضيانها بمدينة (تونيان) من كل عام .. وكان من جراء ذلك ان نقلت بعض قطع من الاثاث الى المنزل المهجور ، وتقرر أن يقضى به لويس وزوجته كاميل أسبوعين أو ثلاثة ، بعد الزواج ، ريثما يتعود الطبيب حياة الوحدة .. فاذا ما سافرا بعد ذلك ــ وكانا قد اعتزما أن يرحلا الى ايطاليا ــ أعيد تنظيم المنزل وتأثيثه ، فى غيابهما .

وقال روبير لصديقه : « لسوف نتقابل فى نيس ! » .

فقال لويس محتجا : « ولوسى ؟ .. ماذا تفعل وحدها ؟ »

ــ أنك تعرف يا صديقى انها قد تضايقنا فى هذه الرحلة، ولهذا فقد رددتها الى أمها ، ولن أطلب منها الحضور الا بعد أن نفرغ من رحلتنا ونفترق !

و فى صبيحة يوم الزواج ، انهار جلد «كاميل» وشجاعتها ، وشعرت برعب جديد حين اقتربت تلك الساعة التى تتمناها جميع الفتيات .. فقد أيقنت من أن لويس سيكشف سرها الرهيب فى تلك الليلة ، من أعراض لا سبيل الى اخفائها !.. أفليس فى جسمها أثر للجريمة لا يمكن محوه ؟ .. وأخذ الخوف يمزق جسمها كالسلاح الحاد ، وبرح بها التوجس وأضناها ، حتى انها شعرت ــ فى ذلك الوقت ــ بكراهية شديدة لجياكوميتى ، منتهك عرضها ! .. شعرت بأنها تبغضه بكل ما فى نفسها من قوة على البغض .. ولم تستطع ــ طيلة ذلك اليوم ــ أن تبعد عن فكرها ذلك الخاطر الرهيب ، فكانت شاردة ، كالغائبة عن وعيها ، فى حفلة الكنيسة والمأدبة التى أقيمت بعدها احتفالا بالزفاف .

وفى المساء ، أقبل عليها والدها يحمل فى يده خطابا تسلمه من البريد ، وقال لها : « ترى هل تحدسين مرسل هذا الخطاب ؟ »

واقشعر بدنها .. وقفز اسم على شفتيها ، ولكنها لم تجسر على أن تنطق به .. لقد همت بأن تقول : «جياكوميتى»،

لولا ان امسكت لسانها بقوة جبارة ، بينما استطرد الدكتور جوفر قائلا :

ــ انه من « روكبيكيه » ! .. يالهذا الشاب من غريب الاطوار ! .. تصورى انه كتب الى مهنئا بالزواج ، كان شيئا لم يحدث بيننا ! .. بل انه ليذهب الى أبعد من هذا ، فيخطرنى بعودته نهائيا الى المدينة بعد شهرين ، ويقول أنه سيكون له عظيم الشرف بالتعرف الى مسيو لويس زوجك !

وحاولت كاميل أن تبتسم ، فقد خلصها حديث أبيها من عذاب الحدس الذى خطر لها !

***

وعندما جن الليل ، وانفردت كاميل بزوجها فى غرفتهما ، اشتد كربها وألمها ، ثم انفثأ الهم فى سيل من الدموع المنهمرة ، فتحولت تلتمس الحمى فى كتف زوجها ، وقد أجهشت بالبكاء !

أما هو ، فقد شعر بالاضطراب بعد ان تحققت له تلك الامنية التى طالما تاق اليها قلبه من زمن ، فضمها بين ذراعيه ، وأخذ يهدهدها ويستهويها بكلمات لطيفة ، كأنها طفلة خائفة أراد أن يبعث الطمأنينة فى نفسها .. وراح يردد لها :
« كاميل ، يا زوجتى العزيزة .. مم تخافين ؟ .. انك تعلمين كم أحبك ، أليس كذلك ؟ .. أفلا تثقين بى ؟ »

وكان خوف لويس من المجهول ، واضطرابه العظيم ، خير مساعد لكاميل على أن تبدى ــ دون ادعاء أو تمثيل ــ كل مظاهر الزوجة العذراء ، وهى التى سبق لها أن شربت كأس الحب الجنسى حتى الثمالة .. فأصرت على اطفاء أنوار الحجرة ، متظاهرة بالحياء ، وهى تقصد ان لا يرى زوجها طابع العار على جسمها .. وبدلال الحب ، أخذت تصطنع التمنع ، ولم تسلمه نفسها الا بعد لأى ، وقد سالت دموعها

مدرارا .. وهكذا أمكنها أن تخدع زوجها ، بل ان المظاهر كلها كانت كفيلة بأن تخدع من هو أكثر خبرة من لويس الغر، الجاهل بهذه المسائل !

وأخيرا شعرت أنها أصبحت زوجته حقا ، وانه يضمها اليه بذراعيه اللتين ستصبحان ـ منذ ذلك الحين ـ حصنها المنيع .. وانتشت وهى تشعر بقلبه يدق قريبا من قلبها .. قلبه الذى لم ينبض بغير حبها .. وبدأت تتذوق سكرة القبلة الاولى فى ظلال الزوجية والرباط الشرعى .. وخيل اليها أن ماضيها المر المؤلم قد فارقها ، وان سلسلة حياتها ـ التى كانت مبتورة الحلقات حتى الامس ـ قد اتصلت فى نهاية الامر ، والتحمت حلقاتها .. ووهبت لويس ـ فى هذه اللحظة ـ كل ما كان فى روحها من حب وعطف .

وهمست وسط ذلك السكون الذى تبع اتصال نفسيهما :

ـ اواه ، لكم أحبك ! .. **أبدا ما أحببت شخصا غيرك !**

ولم تكن كاذبة فى تلك اللحظة بالذات .. كانت تؤمن بذلك حقا ، وتعنى ماتقول صدقا !

وكانت أيام سعيدة ناعمة ، تلك الايام التى تلت اتحادهما .. كان ذلك فى شهر نوفمبر ، وقد بدأت أوراق الاشجار تستعيد لونها الاخضر ، ودبت فى الجو بوادر البرودة .. وكان روبير قد غادر (تونيان) .. ولم يعد يشغل كاميل ولويس سوى تلهفهما على توثيق صلاتهما ، ولذا راحا يكثران من الخلوات ، والانفراد معا .. حتى لقد باتا يضيقان بتردد « آل دلكومب » عليهما ، بل ان وجود الدكتور جوفر ـ والد كاميل ـ كان يمضهما ! .. وكان جوفر يعرف ذلك ، ويحاول دائما أن يعلق على الماضى ويذكرهما به .. فكانا يغادران « المنزل المنعزل » ، وقد تأبط كل منهما ذراع الآخر، ويسيران مبتعدين عن المنزل، فى اتجاه الجسر المعلق، وفى الطريق الريفية العامة ، دون أن يلتفتا وراءهما مرة واحدة ، لرؤية

ذلك الكهل الذى خلفاه وحيدا فى المنزل الخاوى .. أفهذا هو المستقبل الذى كان الطبيب يحلم به ؟ .. لقد كان يتمنى دائما أن يبقى معهما ، فى مكان واحد ، فيعيش ثلاثتهم تحت سقف واحد ، لكى يقاسمهما بعض هنائهما !

***

وبدأت تداخله أحاسيس مضطربة .. فقد رأى «كاميل» تنتزع منه ، وهو الذى عاش من أجلها ، فخامره ـ نحو لويس ـ حقد الام نحو الرجل الذى ينتزع ابنتها من بين يديها .

وأخذ الطبيب المحروم يتذكر كل ماقرأ وعرف عن الحب والعشاق .. ان الهوى يدفع كل عاشق الى محاولة الاستئثار بمحبوبه ، والبعد به عن الناس جميعا .. وان أى محبين يحرصان على تكتم مابينهما ، وعلى التستر على علاقاتهما ، حتى ليبدوا كما لو كانا لصين يسرقان شيئا ليس لهما فيه حق ، ولو كان حبهما قد بورك بالزواج ، وأصبحت رابطتهما مشروعة !

أما هما فلم يكونا يفكران فى الشخص الذى استطابا أن يخلفاه وراءهما ، ولا فيما كانا يسببانه له من ألم وحزن .. وكانا يسيران فى طريقهما تدفعهما أنانية الحب الطاغية !.. وكم كانا يشعران بالسعادة اذا ما ابتعدا عن الناس، وخرجا الى الحقول اليانعة ! .. فكانا ينطلقان وسط المزارع ، وقد طوق كل منهما الآخر بذراعه ، وتقاربت شفاهما ، وغابا عن الكون فلم يعودا يحسان بما حولهما ، ولم يعودا يفطنان الى تصرفاتهما .. وهكذا كانا يمضيا فى سيرهما ، الى أن ينبههما صوت من الاصوات ، أو يقابلهما أحد فى الطريق ، فيتباعدا وقد التهبت خدودهما، وفضحت نظراتهما سرهما، فراحا يداريانه بابتسامة على فم كل منهما .

وكان لويس يودع فى قبلاته قوة وحرارة ثلاثة وعشرين عاما .. سنوات شبابه الذى احتفظ به طاهرا ، فقد كانت زوجته بالنسبة له هى عشيقته الاولى ! .. وكان كل عناق يحمل الى نفسه معنى جديدا من معانى الغرام ، وهى معان جديدة ، لم تكن كاميل تبذل فى سبيل ابرازها مجهودا كبيرا ، اذ أنها معروفة لكل امرأة ، مهما تكن سذاجتها ، أو جهلها .. وسواء كانت طاهرة أو متردية !

وتضاعف شعورها بالبغضاء للرجل الذى دنسها ، بقدر ما تضاعف شعورها بالولاء للرجل الذى أنقذها .. وأرادت مدفوعة بهذين الشعورين أن تمكن لويس من أن يحصل على كل ما حصل عليه جياكوميتى ـ من قبل ـ من المتع واللذائذ .. وحرصت على أن تمحو شفتا زوجها تلك قبلات العشق المدنسة ، عن كل موضع ـ من جسمها ـ وصلت اليه شفتا ذلك العشيق !

وهكذا تمكنت من استثارة شهوات الشباب لدى زوجها ، حتى فقد دقة الملاحظة حينا من الزمن .. اذ ان جيشان العاطفة وطغيانها اكتسحا كل فطنة وانتباه !

وكانت تطيل من اجتماعها بزوجها ، لان تلك الاجتماعات كانت بالنسبة لها حصنا منيعا ضد الذكريات الاليمة المختزنة فى وعيها ، وضد الخوف الطاغى الذى كان يتولاها نحو المستقبل .. ولم تكن تلك العلامات ـ علامات الحمل ، التى كانت تتوقعها بفارغ الصبر ـ قد ظهرت على جسمها بعد ، ولكنها لم تعد تقض مضجعها وتسهدها ، كما كان الامر فى الماضى ، اذ كان وجود لويس الى جانبها كافيا لطرد هذا الشبح المرعب !

وعلى الرغم من تلك الحياة ـ التى لم يشغلا فيها بغير حبهما ـ أشرفت أيامهما فى (تونيان) على الانتهاء .. كانا يشعران دائما بالفضول يلاحقهما من جانب أهل المدينة

جميعا . والحق ان زواج كاميل الموفق أثار فى المدينة كثيرا من الحسد ، حتى لقد كان من اليسير عليها أن تلمس هذا الحسد فى النظرات التى كانت تتعقبها أينما سارت خارج البيت !

لذلك بات الزوجان يتوقان الى مغادرة (تونيان) ، لاسيما بعد ان تلقيا خطابا من روبير ، يخبرهما فيه بأنه قد وصل الى (نيس) . فاتخذا من ذلك الخطاب ذريعة للسفر ، وعرضا على الدكتور جوفر أن يصحبهما فى رحلتهما الى (نيس) ، ولكنه رفض ، كما توقعا — من قبل — أن يبرح مدينته ومرضاه .

***

ولقد شعر الرجل بأسف لما كان فى تلهفهما على مفارقته من قسوة .. قسوة العشاق السعداء ! .. ولكنه ضمهما بين ذراعيه ، وغمرهما بقبلاته حتى آخر لحظة قبل الفراق .. وكان حبه أياهما ، وعطفه عليهما ، يغالبان ألمه وأساه لحرمانه منهما ، فلم يتمالك ان ابتسم — كما كان يفعل فى الماضى — بينما كان قلبه يتوجع لمرارة البعاد .. وهكذا فارقاه بعد ان وعداه بأن لايطيلا الغياب ، وراحا يكرران له : «سنعود بعد ستة اسابيع ، أو بعد شهرين على الاكثر .. اى بعد ان ينقضى الشتاء ، وبعد أن يكون تأثيث المنزل قد اكتمل ! »

وأردف لويس للطبيب جوفر ، وهو يقبله للمرة الاخيرة : « .. وأرجو ياوالدى ، ألا تمس « الغابة العذراء » ، أو تغير معالمها ! »

وكان لذلك السفر أثر حسن على كاميل ولويس ، فقد هدأت أعصابها . وكان من آثار التعب — الذى لابد منه فى الاسفار — وطرافة المناظر التى أخذا يصادفانها ، ولم يكن

لهما بها عهد ، أن هدأت الحمى الجنسية التى انتابتهما منذ زواجهما !

ولم تكن كاميل قد سافرت قبل هذه المرة ، بل انها لم تكن قد غادرت مسقط رأسها قط ، ومع ان لويس كان قد عرف (باريس) ، و (مرفيل) ، وسواحل (المانش) ، وبحر الشمال جيدا ، الا انه لم يكن قد رأى أقاليم (الميدى) و (الجارون) و (الالب) .. وهكذا كانت المناطق التى تضمنتها رحلتهما مجهولة لديه ، كما كانت مجهولة لدى زوجته !

وما ان وصلا الى (نيس) حتى أثر الوسط الذى وجداه هناك فى نفسيهما ، فقد ردهما الجو الى الصيف ، بالرغم من أن ثلوج الخريف كانت قد بدأت تلوح فى تلك المنطقة السعيدة . ووجدا فى المحطة وجها يبسم لهما ، اذ كانا قد أخطرا « روبير كلاييس » – فى خطاب موجز – بموعد وصولهما ، فخف الى لقائهما .

وقال لهما : « هيا الى المركبة .. لقد استأجرت لكما منزلا قريبا من هنا » . فسأله لويس بصوت خافت ، متردد : « ولوسى ؟ » . فأجابه الشاب : « انها فى مونت كارلو .. فى فندق « الكنتننتال » مع أمها .. أى انها على مسيرة ربع ساعة من هنا . وهكذا يمكننى – طوال مدة اقامتكما هنا – أن أقسم وقتى بين الصداقة وبين .. » . وأمسك محرجا ، فبادر لويس قائلا : « وبين الحب ! » .. فابتسم روبير وقال : « أو فلنقل .. بين الواجب ! »

***

وبعد ، فان ذكرى ذلك المنزل – الذى استأجره لهما صديقهما – ظلت ماثلة فى ذاكرتيهما حتى الشتاء التالى ، وبقى المنظر الذى كان المنزل يشرف عليه – فى تلك المنطقة

الجبلية الصخرية – راسخا فى ذهنيهما ، لم تنل منه الايام .. وكانا لا يفتآن – بعد ان بارحا المنزل ، بل المنطقة بأسرها – يذكران كل جزء فيه ، ويتمثلان حجراته التى كان روبير قد ملأها بالزهور عند وصولهما اليه أول مرة !

أجل ، ظلا يذكران ذلك المنزل ، ففيه شعرا – للمرة الاولى – بوحدتهما التامة ، وحريتهما الكاملة ، وخلاصهما من كل ما كان يحيط بهما – فى (تونيان) – من فضول وحب استطلاع .. حتى الدكتور روبير – صديقهما الشاب – آثر أن يفسح لغرامهما الزوجى المجال ، فحرص على أن لا يثقل عليهما بحضوره الا نادرا ، وتلبية لالحاح لويس فقط !

وكأن لويس وكاميل يشعران – حتى ذلك الحين – بأنهما عاشقان أكثر منهما زوجين ، وان كلا منهما يزداد تعرفا بالآخر ، فى كل لحظة يقضيانها معا .. بل كانت كل لحظة يفترقان فيها ، تبدو كما لو أنها ضاعت سدى من عمريهما .. وكانت شفاههما لاتكاد تفترق حتى تبدأ فى الاقتراب ثانية ، وما يكاد ينفض اجتماعهما حتى يدب الشوق من جديد الى قلبيهما !

ومن أول ظواهر الحب العاطفى ، أن يكون الانفعال فيه حادا ، مشبوبا ، وأن يفقد العاشقان ارادتيهما ، لينساقا الى ارادة أخرى تذكى فى نفسيهما الشوق والرغبة فى وقت واحد .. أما فى حالة لويس و كاميل ، فكان الامر على نقيض ذلك .. كانا يشعران بالحب كما شعرا به منذ اليوم الاول ، هو هو لم تنقص منه ذرة ، ولكنه لم يكن حبا مستبدا يمحو شخصيتهما ، وانما كان حبا رفيقا ، ناعما ، لم يلبث كل منهما أن أخذ يستعيد – فى غمرته – شخصيته . فكانا ينعمان بتبادل الاحاديث والآراء ، بقدر ما كانا يستعذبان تبادل الاحاسيس والملذات ..وأصبحا أكثر استمراء للقبلات منهما فى الماضى .. بل أصبحت القبلات تبعث فى نفسيهما سرورا أبقى !

كانت هذه الفترة هى العهد السعيد لغرامهما ، حيث يزداد الحب اشراقا ، اذ يسفر عن وجهه بعد زوال الكلفة التى تلازم الضمات الاولى ، واذ يفرض من الالفة ما يزيل الاستحياء والحرج ! .. وهكذا عرف لويس وكاميل مايكون بين الزوجين الجديدين من غزل رقيق . فكم من مرة خرجا لنزهة على الاقدام ، فكانت كاميل لا تلبث وهى فى الطريق ، ان تكتشف ـ وقد احمر وجهها خجلا ـ أنها نسيت بالمنزل شيئا لايمكنها أن تستغنى عنه مثل منديلها أو مظلتها .. ويضطران الى العودة لاحضار مانسيت ، ولكنهما لا يلبثان ان يستطيبا البقاء فى المنزل بمجرد وصولهما اليه ـ فيعدلا عن النزهة !

وكان يحدث أثناء نزهتهما ـ فى الضواحى والمدن القريبة ـ أن يتأخرا الى وقت يفضلان معه النزول فى أحد الفنادق القريبة ، والبقاء به الى اليوم التالى .. ذلك لأنهما كانا يشعران بأنه ليس فى طاقتهما انتظار العودة الى (نيس) ، لينعما بالوحدة .. والحب !

وكانت « كاميل » ـ عقب كل تصرف عابث نزق ، من هذا النوع ـ لا تجرؤ على النظر الى صاحبها ، وكأنها وحدها المذنبة . فكانت تلجأ الى كتفه ، وتضحك ضحكا غريبا .. وبدأت تدرك بغريزتها ، غريزة المرأة العاشقة ، أن من الخير الا تذعن لرغبات زوجها بتلك السهولة ، ولا أن تجاريه فى ظمأه الى الهوى ، بل لابد من أن تبدى شيئا من الاعتراض والتمنع . لذلك بدأت تصده عن نفسها .. فلم يكن لويس يزداد الا الحاحا .. وهكذا بدأ حبهما يعرف رقة الرجاء ، ذلك الرجاء الذى كان يقابل أولا بالرفض الهادىء ، ثم لا يلبث الرفض والتمنع أن ينهارا فى النهاية .. دائما !

وكان من جراء هذا التحول النفسى الطبيعى ـ بالاضافة الى ما لتغيير المكان وفعل الزمان من آثار ـ ان التأم الجرح

فى قلب كاميل . فاندمل ما كانت الذكريات الماضية قد خلفته من آثار دامية . واستغربت كاميل ذلك ، وشعرت بالسعادة اذ تبينت أنه قد بات فى وسعها أن تفكر فى الماضى دون أن تشعر بذلك الرعب الداخلى المخيف ، الذى كان يعذبها ويضنيها ، فيما مضى !

لكم كانت الاحداث - التى طالما أرقتها - تبدو لها ، فى تلك الفترة بعيدة ، حتى لقد كانت تخال - أحيانا - انها لم تكن من الحقيقة فى شىء ، وانها لم تعد ان تكون حلما مزعجا ! .. لقد اختفى الرجل الآخر من حياتها .. كما ان الجرح البالغ - الذى خلفه فى نفسها - قد ساعد على التئامه ما غمرها به زوجها من حب ، فزالت كل معالمه .. ولكن ، لا .. ماينبغى لكاميل ان تخدع نفسها الى هذه الدرجة ، فلقد بقى اثر واحد .. واحد فقط ، هو ذلك الجنين الذى انطوت عليه احشاؤها ! .. ولكنها كانت - كلما ذكرته - قالت : « وما الذى يهمنى من ذلك ؟ .. ليس هناك مايخيفنى فى الوقت الحاضر ! »

وكانت تسرع لتحتمى بأحضان لويس .. وبينما كان يضمها الى صدره ، كانت تفكر فى نفسها قائلة : « اذا كان هناك جنينا فى أحشائى ، فانه من هذا .. من لويس ، ممن أحب ، اننى أريد أن يكون منه هو ! »

(٢)

كانا قد انتهيا من طعام الافطار ، ووقفا الى جانب النافذة المطلة على الشرفة .. وكان لويس يدخن لفافة من التبغ ، وهو ينظر الى كاميل .. أما هى فراحت تعبث بصفحات احدى الصحف اليومية ، وتطالع أى جزء يقع عليه نظرها ، كما تفعل النساء دائما ..

وفجأة شحب وجهها ، وأسرعت تقصى الصحيفة عن عينيها فى جزع ، وهتفت : « ياالهى ! » ...

ترقب الجزء الثانى والأخير ..

وبعد ؟ ! .. ترى ما الذى قرأته « كاميل » فى الصحيفة ، فأثار جزعها بهذه الدرجة ؟.. ايكون فيما قرأته مايفضح سرها ؟ **ان سرا** كهذا لابد أن يفتضح يوما، فماذا يكون موقف لويس؟ .. هل يغفر ويصفح، أو ينتقم لغرامه المغدور، وثقته المهدورة ؟

والدكتور جوفر ؟ .. هل يتغلب عليه الغضب لان ابنته خانت الثقة التى وضعها فيها ، وهو الذى وقف حياته عليها ، أو يطغى الحنان على كل اعتبار ؟

وكاميل ؟ .. ماذا يكون شأنها بين ذل العار ، ونقمة المظلومة التى غدر بها العشيق وقسا عليها الزوج والأب ؟

كل هذا يوافيك به المؤلف ، فى الجزء الثانى والاخير

بنك مصر

درج بنك مصر منذ نشأته على مسايرة النهضات التقدمية. فلما تفجرت النفوس وانبعثت الثورة وانبثق نور الشعلة المقدسة تجاوبت كل هذه الظواهر مع النشأة الطبيعية لبنك مصر .. ومع الأهداف العليا التى رمى إليها فى حرب الاستعمار الاقتصادى فأنشأ شركاته التى كانت جيوشا حارب بها الاستغلال الأجنبى فى شتى ألوانه والروح الدخيل فى مختلف صوره

كتابى

الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية

يقدم لك فى كل عدد من اعداده ، مجموعة ضخمة من ملخصات اروع الكتب العالمية .. ومنها :

الجحيم .. هو الناس !

(من أقوى مسرحيات جان بول سارتر)

الشمس تشرق ثانية

(قصة ارنست همنجواى الجبارة)

كيف نقاوم العصبية

(من كتب علم النفس)

فولتير العاشق

(صفحات مجهولة من حياة الفيلسوف الكبير)

نماذج من النساء

(من روائع ارسكين كالدويل)

الحب خالد !

(قصة الحياة الخاصة لابراهام لنكولن)

نساء ومآس

(اشهر قصص الحب والجريمة لروجيه ريجى)

الخ .. الخ .. الخ .

كل عدد أقوى من سابقه ـ ٢٥٠ صفحة ـ ١٢ قرشا

كتابى

يحشد لك - فى الأعداد التالية - مجموعة ضخمة من أروع الكتب الحديثة التى جلبها لك من عواصم أوربا وآسيا.. فيفتح أمام ذهنك آفاق الثقافة العالمية على مصراعيها.. ويكفل لك ولأولادك زاداً عقلياً وغذاء وجدانياً لم يسبق لهما مثيل باللغة العربية.. فلا يفوتك اقتناء أعداد هذه السلسلة منذ اليوم.

فولتير العاشق

الشمس تشرق ثانية
ارنست همنجواى

المدينة الآثمة
(سدوم وعمورة)

الحياة اليومية
فى أيام الفراعنة

نابليون العاشق

أول كتاب
عن حياة ومأساة
"ستيفان زفايج"

(تاهيتى)
جنة المحيط الهادى

قصص الحب
فى سياسة العالم!

ملعونة هى الشهوة!
(أحدث كتاب عن حياة موليار!)

يوميات
فرانسوا مورياك

قصة الفساد والانحلال
فى فرنسا
قبل الحرب الأخيرة

تعلم كيف تستر…
(من كتب علم النفس العملى)





وترقب أيضاً الأعداد الشائقة القادمة من السلسلة الشقيقة

مطبوعات كتابى

التى أعدت لك بدورها برنامجاً ثقافياً ضخماً